

الباب الثاني

لغتنا ومشكلاتها في العصر الحاضر

- العامية والفصحى
- الغزو اللغوي ومعركة التعريب
- العربية وعلوم العصر
- تعليم العربية ورأى في أزمنا اللغوية

obeikandi.com

العامة والفصحى

وجود لغة عليا للفكر والأدب مع
لهجات محلية للتعامل ، ظاهرة طبيعية عرفها
العربية من قديمها الجاهلي ، وتعرفها الدنيا
في سائر اللغات الحية .

لكن الاستعمار استغل هذه الظاهرة الطبيعية
ليحارب الفصحى بلهجاتها الشعبية تمزيقاً
لوحدة اللغة والفكرية والمزاجية ، فراجت
دعوى تهيم الفصحى بالعقم والبداوة وتلقى
عليها مسئولية تخلفنا ، وتدعو للعامة فتزعم لها
القدرة على الوفاء بمحاجات وجودنا اللغوي الحديث ،
وترى فيها المفتاح السحري لتقدمنا العلمي
والحضاري ! والوسيلة الميسرة لتثقيف الجماهير
وتعليم الأميين !

obeikandi.com

أطلت عليكم في متابعة سير الزمن بلغتنا العربية من قديمها الجاهلي إلى عصر الحضارة الإسلامية ، وآن لنا أن ننظر في حياتنا اللغوية اليوم وما تواجه من أزمات ومشكلات .

وعصرنا وريث عصور مظلمة من التخلف ، تدهورت فيها حياتنا العامة حضارياً وسياسياً واجتماعياً وفكرياً ، فأسلمت الأمة ، إلى محنة الاستعمار . وغشها ليل طويل ريثما استجمعت قوتها وخاضت معركتها لتحطيم الأغلال . وما كان يمكن أن تنجو لغتنا مما أصاب الحياة العامة من تخلف وانحطاط .

ثم لما استردت شعوب الوطن العربي استقلالها في النصف الثاني من هذا القرن العشرين . بدأت تواجه مشكلات وجودها اللغوي فيما تواجه من مخلفات ليل المحنة .

• • •

منها ، مشكلة الفصحى والعامية التي ارتبطت بالوجود الاستعماري في وطننا العربي . مع أنها في أصلها ظاهرة طبيعية ، تعرفها الحياة في وجود لغة عليا للفكر والأدب والثقافة ، ولهجات محليات التعامل .

وقد عرفت العربية هذه الظاهرة ، من قديمها البعيد حين كانت في مهدها بالجزيرة لم تخرج منه . وظلت اللهجات المحلية تعيش إلى جانب الفصحى العالية المشتركة في العصر الإسلامي الأول قبل تعرب الشعوب الإسلامية . ومهما يكن من اقتدار العربية الرسمية على تطويع ألسنة هذه الشعوب ، فإن اللهجات المحلية اتصلت بلغات القبائل التي خالطتها ، وخضعت لمؤثرات صوتية وعوامل إقليمية وميراث لغوي ، يختلف في قطر عن قطر ، وفي بيئة عن أخرى من القطر الواحد ، وعاشت هذه اللهجات على الزمن الطويل لغة تعامل شعبي وتفاهم على ، لم تسجر على الفصحى التي بقيت لغة الأمة ديناً ودولة ، ومناطق وحدتها الذوقية والوجدانية ، واللغة العليا للتعليم والتأليف والثقافة والحضارة.

ومهما يكن من تفاوت اللهجات المحلية وحرية في الخروج على قيود الفصحى وقواعد اللغويين والنحاة . فإنها لم تتعد أن تكون لهجات شعبية للعربية ، وليس من المتصور أن تحمّل أى لهجة منها على لغة لها قديمة قبل العربية . وكل هذه اللهجات تطور مستحدث تعربت فيه ألسنة العامة بقليل ما أسعفتها حناجرها وتطلبت حياتها وحكمت ظروفها . وقد تناءت بهذا التعرب عن لغاتها القديمة المهجورة . فحين نقول العامية المصرية ، أو الشامية والعراقية ، أو السودانية أو المغربية ، فليست إلا العربية على ألسنة أهل هذه الأقطار .

ومهما يكن من بقايا المصرية القديمة في عربية أهل مصر ^(١) ، أو بقايا البربرية في لهجة المغاربة ^(٢) . فإن هذه البقايا لا تنفي انتماء اللهجتين إلى العربية ، إلا عند من يتصورون إمكان فهم الشعب المصرى أو المغربى ، للغات أسلافه قبل الفتح والتعرب !

وسبق القول بأن اللهجات العامية لم تحلّ دون فهم عامة الجماهير لفصحى العربية ، لافى كتابهم الدينى فحسب ، ولكن فيما يسمعون كذلك من قصائد وخطب ومواعظ وأناشيد .

وقد يُظن أن أجهزة الإعلام الحديثة هى التى وصلت جماهير العامية بالعربية الفصحى ، ولكن خطأ هذا التصور يبدو بوضوح إذا ذكرنا أن الفصحى كانت جيداً قريبة إلى الجماهير من الأميين ، قبل اختراع أجهزة الإذاعة ووسائل الإعلام الحديثة . فعنى القرن الماضى كانت منشورات المهدي مثلاً بلغتها الفصحى ، تلهب حماس الجماهير فى الشعب السودانى ، وينفعل بها أبناء البلد وسكان البوادر على السواء . ولم يكن المذيع قد اخترع ، حين كان خطباء الثورة العرابية يقودون الشعب للنضال عن حريته ، وكانت الجماهير تحتشد لسماع خطب مصطفى كامل وتتجاوب بها من شمال

(١) راجع كتاب « قواعد اللغة المصرية » للدكتور صبرى .

(٢) اقرأ مثلاً ، كتاب : « أنفاظ مغربية ورحلة إلى المغرب » للشيخ محمد رضا الشيبى .

الدلتا إلى أعلى الصعيد . وسعد زغلول - خطيب عصره - لم يكن جمهوره من المثقفين وحدهم ، بل كان أكثرهم من الأميين . وكذلك الأمر في خطب جمعية علماء الإسلام بالجزائر وأناشيد شعرائها ، كانت تجد صداها المثير لحماسة الشعب الجزائري الباسل ، في الريف والوادي والجبال .

لأن عامياتنا لا تعدو أن تكون لهجات عربية ، تتفاوت وتختلف ، وتظل أبداً متصلة بالنصحى العليا في القرآن الكريم الذي حفظ سلبها اللغوية ، وفي الخطب المنبرية والسياسية ، وبالمحافل الدينية والأعياد الإسلامية . وفيما يشدو به أئمة الطرق من أناشيد صوفية ، وفي حماسيات للخطباء والشعراء قادت حشود كتابنا في المعارك التي عرفها تاريخنا الطويل .

لم تكن ظاهرة الثنائية اللغوية إذن طارئة محدثة ، بل هي ظاهرة طبيعية في حياتنا اللغوية منذ كانت . فقيم إذن ارتبطت الظاهرة بالوجود الاستعماري في المنطقة ؟

ارتبطت به على وجه يجعل من العاميات سلاحاً ضد النصحى ، ويتفهم بهما في موقف الخصومة والعداء .

لقد استغل الاستعمار هذه الظاهرة الطبيعية ليحارب النصحى بلهجاتها المتعددة . ووجد في اختلاف اللهجات الإقليمية ذريعة للقضاء على اللغة الواحدة المشتركة التي تربط المشرق والمغرب بأواصر التفاهم والتجاوب ، وتجعل من أقطار وطننا الكبير وحدة فكرية ومزاجية ، ينتقل بها الكتاب العربي من ساحل الخليج ووادي الرافدين إلى ساحل الأطلسي . ومن أعلى الفترات في قلب آسيا إلى بوادي دارفور وكردفان في قلب إفريقيا ، رسول فكر وثقافة وأدب ، وآصرة قربي ووحدة ، في الفكر والمزاج .

• • •

وسارت خطة العداء للنصحى في اتجاهين :

بدأت حملات مسعورة ، تكشف من ناحية عن جمود الفصحى وتعقدها
وبداوتها وتخلفها عن حاجة العصر ، وتلقى عليها مسئولية ما كان من تخلفنا
وانحطاطنا .

وتدعو من ناحية أخرى للعامية ، وتضيف إليها مزايا من الفصاحة
والسهولة والمرونة ، والقدرة على التعبير عن مطالب الحياة العصرية ! وترى
فيها الوسيلة لتثقيف جماهير الشعب وتعليم الأميين !

• • •

بدأت الحملة على العربية إثر ثلاثة قرون من الحكم التركي ، تدهورت
فيها الحياة العامة وانحدرت اللغة إلى غاية السقم والضعف ، سبغت بصراعها
مع التركية التي فرضها العثمانيون لغة رسمية للدواوين والتعليم ، فلم يبق لهذه
العربية المستضفة سوى « الأزهر » في مصر ، و « الزيتونة » في تونس ،
أما في المغرب الأقصى الذي لم يخضع للحكم العثماني ، فكانت « جامعة القرويين »
المنارة لعلوم العربية والإسلام .

وفيما كان الغرب يتربص بالرجل المريض الموت ليتقامم تركته ،
بدأت بذور القضاء على اللغة العربية تلقى في أرضنا ، مسخاً للشخصية القومية
وعزلاً للأمة عن ماضي تاريخها وتراثها ، وتمزيقاً لوحدةنا اللسانية التي
تربطنا على تنائي الديار واختلاف الأقطار .

وكان الاتجاه الاستعماري ، إلى إحلال لغاته محل العربية ، فإن تعذر
هذا فلتكن اللهجات العامية هي السلاح الذي يقضى على عربيتنا الواحدة .

ويبدو أن الجزائر ، بحكم سبق الاستعمار إليها ، كانت حقل التجربة
للغزو اللغوي في قلب المغرب ، وأن مصر ، في قلب المشرق ، كانت ميداناً
لتجربة تمزيق الوحدة اللغوية ، بإحلال العامية مكان الفصحى المشتركة .

ونرجى الآن الحديث عن التجربة الاستعمارية لفرنسة اللسان الجزائري
وننظر في قضية العامية والفصحى بمصر ، من حيث يمكن أن تتكرر
فصولها بصورة أو بأخرى في غيرها من أقطار المشرق .

بدأت الدعوة إلى نبذ الفصحى تنسلل إلى أفق مصر في عهد أزمتها بالتدخل الأجنبي في عصر إسماعيل .

ففي عام ١٨٨٠ على التحديد ، وصندوقُ الدِّينِ يدفع بمصر إلى براثن الاحتلال العسكري السافر ، نشر « الدكتور ولهم سبيتا » مدير دار الكتب المصرية « كتاباً باللغة الألمانية في (قواعد العربية العامية في مصر) وقد تنبأ بمصير العربية الفصحى إلى الموت ، كما ماتت اللاتينية . ولعل « سبيتا » لم يتجه إلى خدمة الاستعمار مباشرة ، بل إن من الصعب أن نتصور أن هذا المستشرق الألماني كان يعمل لحساب الاحتلال الإنجليزي الذي مالبت أن جثم على مصر . كل ما في الأمر أن مشكلة الثنائية اللغوية شغلت هذا المشرق ، وقد اتصل بالفصحى في نصوصها الرسمية والأدبية الهابطة المسفة ، واتصل بالعامية لغة الحياة والأدب الشعبي ، وقارن هذا الوضع بما كان من أمر اللاتينية التي أمانتها اللغات الفرعية التي كانت تشبه لهجات محلية لها ، فتصور أن العربية صائرة حتماً إلى مثل هذا المصير ، ووقف إلى جانب العامية التي توقع لها أن تخلف الفصحى ، وفي ظنه أن هذا الوضع المتوقع ، يجدى كثيراً في محاربة الأمية والفقر الثقافي ، وما ينشأ عنهما من انحطاط سياسي وتخلف اجتماعي . وإذ كانت العامية لغةً منطوقة غير مكتوبة ، شغل نفسه بدراسة قواعد العامية كي تأخذ مجالها الحيوي للتعليم والثقافة والأدب ، على أن تُكتب بحروف لاتينية ! وكان عذر « سبيتا » فيما ذهب إليه من إلقاء تبعه انتشار الأمية والتخلف الفكري والسياسي ، على العربية الفصحى ، وتصوره أن العامية تصلح لأن تكون لغة كتابة تروج بها الثقافة . أن المرحلة كانت تعرف مؤلفات ومجلات بهذه العامية تلي رواجاً في جماهير الشعب ، وكُتبت لم يكونوا غير مقتدرين على الفصحى ، لكنهم آثروا العامية ليصلوا إلى الجماهير .

من هذه المدونات . ما كان للفكاهة والإضحاك ، مثل (هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف) للشيخ يوسف الشربيني ، وأزجال الشيخ حسن الآلاتي . ولكن منها كذلك ، ما كان للتوعية والتثقيف . وقد كان

دخول « عبد الله النديم » هذا الميدان ، لافتاً ومثيراً ، فالنديم من قادة الفكر والرأى وأعلام الكتاب والخطباء ، واستخدامه للعامة في مقالاته السياسية - وهو من رؤاد اليقظة - شاهد على مدى الحاجة إلى العامة في إيقاظ الوعي الشعبي ، وشاهد في الوقت نفسه على كونها تصلح للكتابة . وقد أصدر النديم مجلته (أبوناظرة) عام ١٨٧٨ ثم (النكت والتبكيث) عام ١٨٨١ فلم يهتم أحد بالعداء للفصحى أو العجز عنها ، ولقيت المجلتان رواجاً منقطع النظير ، وغزت مقالات النديم الإصلاحية : قرى الريف ونجوع الصعيد ، وآزر قادة اليقظة القومية هذا الاتجاه . وقدروا جدواهم على وعى الشعب وتنقيف الجماهير . وتعبئة الوجدان الشعبي وإرهاق الضمير العام ، وذلك ما نعرض له بمزيد تفصيل بعد أن نفرغ من نبوءة « سينا » وصداها .

• • •

وفي مثل هذا الوضع الذى بدت فيه الحاجة إلى العامة ضرورة قومية لتثقيف العامة ، لا تبدو محاولة « سينا » كما بدت للزميلة الدكتورة نفوسة زكريا - داخلة في إطار المخطط الاستعماري للقضاء على اللغة القومية^(١) . وقد كان نشر المحاولة باللغة الألمانية . يبعدها عن مجال التأثير في المجال الفكرى لمصر .

لكن الاحتلال الإنجليزي لمصر . وجد في مثل هذه الدعوة بذرة صالحة يمكن أن يتعهدا حتى تثمر ثمرتها المشومة . وقد كانت الحجج التى ساقها « سينا » لتأييد فكرته . تعطى من يريدون استغلالها ، ذرائع مقنعة لهجر الفصحى التى حُمِلت أوزاراً ما صارت إليه الأمة من ضعف وتخلف وانحطاط .

لقد مضت دعوة « سينا » دون أن تجد لها صدى في المناخ السعوى ليميد عن الفكر الأجنبي ، وفي قادة اليقظة على موقفهم من تأويل استخدام

(١) تاريخ الدعوة إلى العامة وآثارها في مصر : الباب الأول ، ط الإسلام سرية ١٩٦٤

العامة في الصحافة الشعبية لتوعية الجماهير وتثقيفهم ، وظل « عبد الله النديم » يثير الوجدان الشعبى والضمير القومى بمقالاته الثورية فى (التنكيت والتبكيث) حتى إذا تمت التعبئة الثورية وجندت قيادة الثورة العربية « عبد الله النديم » ليكون الناطق الصحافى بلسانها ، اقتضى الموقف أن يعدل عن العامة إلى الفصحى ، وصدر قرار رسمى من « أحمد عرابى » بأن تحمل جريدة (الطائف) الناطقة بلسان الأمة محل (جريدة التنكيت والتبكيث) اعتباراً من عددها التاسع عشر : ١٨٨١/١٠/٢٣ .

فى الشهر التالى مباشرة ، نوفمبر ١٨٨١ ، ظهرت مجلة المقتطف بدعوة إلى كتابة العلوم بالعامة ، لغة الحديث :

والتوقيت لافت ، يربط الدعوة بهذا التحول فى لغة الصحافة الرسمية للقيادة الثورية الشعبية ، أكثر مما يربطها — كما رأيت الدكتور ففوسة زكريا — بدعوة « سبيتا »^(١) التى كان قد مضى عليها نحو عامين ، فى المكتبة الألمانية .

وبظهور الدعوة فى الأفق العربى ، بدأ صراع بين دعاة العامة ، وحماة الشخصية القومية ، لم يلبث أن احتدم فى أعقاب الثورة العربية التى تأمر عليها القصر والاستعمار ، وسيطر الإنجليز على المراكز الحيوية للثقافة والتعليم ، فعزلوها عن اللغة القومية .

وفىما كانت محاولة الغزو اللغوى تأخذ مجراها للتمكين للغة الإنجليزية من اجتياح اللغة العربية ، بدأت الدعوة إلى العامة تأخذ مجراها ، فى حياتنا الثقافية ومناخنا الفكرى .

لقد صدر القرار الوزارى ، عام ١٨٨٩ ، يقضى بأن تكون لغة التعليم فى المدارس المصرية هى اللغة الإنجليزية ، ووُجهت كل البعثات التعليمية إلى إنجلترا ، وأغلقت مدرسة الألسن . وفى عام ١٨٩٣ قام المهندس الإنجليزي للرى المصرى « ويلكوكس » يحاضر فى نادى الأزبكية داعياً إلى

(١) عبد الله النديم ، بين العامة والفصحى : ١٣٣ ط الدار القومية ١٩٦٦ .

إحلال العامة محل الفصحى فى الكتابة والتأليف . كان موضوع محاضرتة هذا السؤال المثار : « لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين إلى الآن ؟ » وكان جوابه أن العربية الفصحى ، ولا شىء غيرها ، هى التى أمانت قوة الاختراع فىنا ، ولا أمل فى إحيائها إلا إذا اتخذنا العامة لغة كتابة وتأليف .

وستسمعوا المحاضرة عادة . قلة من المثقفين ، وقد تمضى الدعوة مع الريح بعد انصرافهم من نادى الأربكية : ومن ثم حرص « ويلكوكس » على أن يسجلها فى العدد الأول من (مجلة الأزهر) التى آلت إليه بعد أن تخلى عنها محرراها « إبراهيم مصطفى وحسن رفقى » . وكانا قد تابعا إصدارها لنشر المقالات الأدبية والعلمية ، إلى ديسمبر ١٨٩٢ . فأخذها ويلكوكس ليجعل منها منبراً للدعوة إلى العامة وإماتة الفصحى .

وأعلن أنه يفسح صدر المجلة للعلماء . على أن يكتبوا بحوثهم باللغة العامة الحية التى يعرفها الشعب ، لا بالفصحى الميتة التى لا يعرفها إلا قلة من المتخصصين . وكان عجباً حقاً ، أن يراد للعامة أن تترك مجالها الحيوى فى الأدب الشعبى وثقافة الجماهير ، إلى بحوث علماء الهندسة والفلك والرياضيات !

وهو منطق لم يسع العلماء المصريون شدوده . فوقفوا من (مجلة الأزهر) موقفاً أرغمها على الصمت والاحتجاب بعد صدور عشرة أعداد منها فحسب !

لقد أصدر نفر منهم مجلة علمية مضادة للأزهر . هى (مجلة المهندس) لنشر البحوث العلمية والرياضية باللغة الفصحى التى زعم ويلكوكس أنها لا تصلح لغة للعلوم . ورجى الحديث عن (المهندس) إلى مكانه من قضية " النصيحى والعلوم الحديثة " . وتابع الحديث عن مقاومة العلماء المصريين لمجلة الأزهر حيث لى عدد كبير منهم دعوة « ويلكوكس » فأرسلوا بحوثهم لنشر فى مجلة الأزهر ، لكنهم أصروا على كتابتها بالفصحى : تحدياً وإنكاراً لشدوذ إقحام العامة على المجال العلمى . ولم يجد ويلكوكس مفرّاً من الإقرار بالهزيمة فكتب فى العدد العاشر من المجلة (أكتوبر ١٨٩٣) يعلن احتجاجها . بعبارات تنضح بالغيظ والسخط :

« ولقد افتتحت ” الأزهر “ وأردت أن أشحنه بالمسائل الرياضية المفيدة بعدما وقفت على شدة عوز المصريين لهذه الفنون ، وأن السبب الوحيد في تأخر العلوم إنما هو تأخر لغة التأليف وعدم إقدام المؤلفين على تصنيف كتبهم باللغة الحية المستعملة التي يعلمها ويتكلم بها كل مصري ، ضناً منهم على أبناء جلدتهم بالمعلومات النافعة . فأخذوا يضعونها في لغة غير مشهورة لا يعلمها إلا القليل ، ولذلك أضحت دائرة هذه العلوم ضيقة وأصبحت شمسها لا تسطع إلا على أفراد يُعدون على الأصابع ، والباقي في ظلمات الجهالة يعمهون .

« فحملني حب نشر العلوم ومبلى لتنوير المصريين - أن أسير في هذه المجلة سيراً وطيداً عاماً ، ولذلك افتتحتها بمقالة حرّضت فيها المصريين وخصوصاً المهندسين على وضع أفكارهم في اللغة الحية المستعملة ؛ رغبة في فائدة العموم وجباً في نشر العلوم ، فأبوا إلا أن يترجموا عن أفكارهم بلغة غير مشهورة . وأخذوا يرسلون بها الرسائل العديدة بغية رصدها بالجريدة ، فما كان يسعني في ذلك الوقت إلا قبولها والتشكر لهم مؤملاً أنهم ربما يخلعون نعل الخوف ويلبسون رداء الحرية والإقدام ، فيعبرون عن معلوماتهم باللغة الحية . وحيث إنهم استمروا على الطريقة الأولى ولم يهتدوا إلى الطريقة المفيدة العامة ، فلا حاجة للاستمرار في إصدار الجريدة إذ أن الفائدة قاصرة على القليلين الذين يعلمون هذه اللغة التي استولى عليها المؤلفين . . .

« والأزهر سيجب عن الظهور بعد هذا العدد - أكتوبر ١٨٩٣ - لأن فكري ، ولا يشترط صحته لدى الآخرين ، أوعز إليّ أن هذه العلوم لا يمكن ظهورها وانتشارها إلا إذا عرضت في اللغة المستعملة ، وهناك يجنى عموم المصريين الفوائد العظيمة ، ولكن أبي الله إلا الاستمرار على ما كان متبعاً قبلاً ، مما له فائدة قليلة قاصرة لا تسوغ لمثل أن يستمر في التحرير ، وأن يداوم على إصدار الجريدة . »

وفي الطرف المقابل ، تصدى « عبد الله النديم » للنضال عن لسان الأمة ، في صحيفة (الأستاذ) التي أصدرها في عام ١٨٩٢ ليجهاد بها في المجال القومي بعد

أن وثدت الثورة عسكرياً وسياسياً. كتب في (الاستاذ) يرد على وليم ويلكوكس :
 « إننا نعلم علم اليقين أنه لو ظهر ألفُ داع بل مئات ألوف من دعاة
 أوروبا لاستعمال لغة تمت لغة القرآن ، ما وجدوا آذاناً سامعة . »

وبعد أن تساءل عما عسانا نصنع بكتبنا وراثتنا إذا كتبنا بالعامية ،
 أنخرقها أم نترجمها إلى العامية ؟ وماذا عسانا نصنع بالقرآن ؟ هل نقرؤه باللغة
 العامية ، والمسلمون يعتقدون أن تغيير حرف منه كفر ؟ أشار إلى محاولة مجلة
 ويلكوكس فقال :

« أظن أن الأزهر-المجلة قصد أن يختبر المسلمين ، فاخترع لهم هذا الباب
 ليرى رسوخ قديمهم في حب لغتهم وتبنيهم لأصولهم الدينية ، حتى إذا رأى
 منهم ميلاً لأفكاره واستحساناً لاختراعه ، ذمهم وبكتهم وشنع عليهم في
 مجامع أوروبا ، وقال إنهم قوم لا يعرفون قدر جنسيتهم ولا حق وطنهم ولا فضل
 لغتهم ولا شرف دينهم ، فهم عمل لا لغة لهم ولا دين . »

واستطرد يقول في سخرية لاذعة وتحذير قاس :

« أما ذمُّه المصريين بعدم قدرتهم على الاختراع وعدم إقدامهم وعدم
 قولهم الحق . فأمر تعودنا سماعه من الأوربيين . ولكن يعز علينا أن نسع
 مثله من رجل من رجال دولة تريد أن تهذب المصريين وترقيهم إلى المدنية
 وتحب لهم الخير في كل عمل تقدمه لهم أو تدعوهم إليه ! فإن صدور مثل هذا
 الشتم منه ربما دلنا على أن ما نسمعه من النصيح والوعظ وهُم ، فتهم غيره
 بما نهمه به . . . » ثم رجاه « أن يرجع عما يملأ قلوب المصريين بغضاً ،
 فإنه بمثل هذه الأهاجي القبيحة يضيع أتعاب رجاله عشر سنين ، فإنهم
 بذلوا جهدهم في جذب المصريين إليهم ، وصانعوا الفلاح والصانع وداخلوا
 الأعيان والأمراء والوجهاء استجلاباً لقلوبهم ودفعاً للنفور الذي يحذنه سلبُ
 الغير للحقوق ، والتعدى بما لا منفعة فيه . ولم نذكره بذلك تعرضاً منا لأمر
 سياسية ليست من شأن جريدتنا . وإنما نادينا بلسان جريدة علمية تناظر
 جريدة علمية أخرى . »

والواقع أن العربية كانت في ذلك الحين ، تواجه من خطر الغزو اللغوي من الإنجليزية في المجالين العلمي والتعليمي ، أكثر مما كانت تواجهه من الدعوة إلى العامية التي أقحمت على الميدان العلمي في معركة خاسرة .

لكن عقدة الموقف في الصراع بين دعاة العامية وحماة الفصحى . أن هؤلاء المناضلين عن لسان الأمة ، كانوا يقدرّون الحاجة إلى هذه العامية لتوعية الشعب وحماية وجدانه من الغفلة والتخدير . وتمثل هذه العقدة الباهظة في حيرة « عبد الله النديم » نفسه ، وتردده بين استعمال العامية التي يحارب بها الاستعمار لسان الأمة ، وبين التزامه الفصحى التي ينبغي أن يُحمى لها مجالها الحيوي : لغة ثقافة وتعليم ، ولساناً مشتركاً للأمة العربية على تنابح الأجيال وتعدد الأقطار .

بدأ فخصص باباً للعامية في صحيفة الأستاذ من عددها الأول (١٨/٢٣) / ١٨٩٢) شارحاً ضرورة الملجئة إليها ، ومعدداً لها مجالها الذي لا يحل أن تتجاوزته . ثم لما أحس خطر الحملة على الفصحى ، كتب في العدد العاشر من الأستاذ (٢٥ / ١٠ / ١٨٩٢) محاورة بين عدد من الأميين ، أنطقهم فيها بما تطوع به ألسنتهم من فصحى سهلة ، بعد أن ارتقت مداركهم وراجت فيهم صحف يومية تكتب بفصحى ميسرة . وكانت هذه المحاولة إيذاناً بإغلاق باب العامية في (الأستاذ) ، لكن الرأي العام الشعبي عارض هذا الموقف وألح في المطالبة بحق عامة الجماهير في بابهم من صحيفتهم الوطنية ، وشارك الخاصة من الوطنيين في مطالبة النديم بإرجاع باب العامية ، وأبدوا موقفهم بحجج لم يملك النديم إلا أن يعطيها في العدد الحادي عشر (١٠/١١/١٨٩٢) ويعلن معها نزوله على رغبة الرأي العام ، وخلاصة ما قاله :

” أن إغلاق باب العامية سيحرم كثيراً من قراء الأستاذ، من الاستفادة من آرائه الإصلاحية القيمة ، والتي كان لها من النفوذ الشعبي أن العامي كان يشتري الصحيفة ، وهو لا يعرف القراءة ، ويلتمس من يقرأها له “ .

— أن العامية وُجِدت بجانب الفصحى من القرن الأول الهجري ، دون أن تضار الفصحى بوجود العامية .

— أن اختلاف عبارة العلماء والكتاب عن عبارة العامة ، أمر جارٍ مألوف في كل أمة لها لغة مستقلة .

— أن معلمى العربية أنفسهم ، يحتاجون أحياناً إلى شرح دروسهم بعبارات عامية لتقريبها إلى أذهان التلاميذ ، كما أن الفنون الشعبية ، كالموايا والرجل والقوما ، تكتب وتقرأ بعربية ملحونة أو بألفاظ عامية . وقد طال العهد عليها وهى مستعملة متداولة ، ولم تضار بها اللغة الصحيحة . بل إن من العلماء من كتبوا فى الفقه والنحو والتفسير بالرجل ، تسهلاً للامة . ولم يؤثر ذلك فى الفصحى ، لجريان التعليم والتأليف والكتابة الرسمية على اللغة الصحيحة .

— أن الضرر الذى يُخشى على الفصحى لا يتأتى إلا من طريق نقل العلوم والتعليم فى المدارس ومجامع العلماء ، إلى اللغة العامية . وهذه نقطة لا فصل إليها إلا إذا عاد الكون إلى الحمجية . وعودته كذلك محالة . فاستعمال العامية فى التعلم والكتب العلمية محال ” .

ولكن الذى بدا له محالاً ، دعا إليه ويلكوكس فى مجلة الأزهر ، فى مطلع عام ١٨٩٣ ، فتصدى له النديم بالرد . ثم صمم على إغلاق باب العامية فى صحيفة الأستاذ ، وكتب فى العدد الثامن والعشرين (٢٨ / ٢ سنة ١٨٩٣) ” محاورة بين حنى ونديم “ أصر فيها على إنطاق حنى الأمى . بالفصحى السهلة . وظل « النديم » على موقفه إلى أن أغلقت (صحيفة الأستاذ) بأمر السلطة ، بعد عددها الثانى والأربعين : ١٨٩٣ / ٦ / ٣ (١) .

وبعد أربعة أشهر ، أغلق ويلكوكس مجلة الأزهر ، لا بأمر السلطة ، ولكن تحت ضغط المقاومة التى تحدته وأكبرته على الصمت أعواماً جاوزت

(١) للزبيلة « الدكتوروة نفوسة زكريا » دراسة مفصلة لموقف « عبد الله النديم بين الفصحى والعامية » تستوعب ما يضيئ المجال هنا عن استيعابه .

ربع قرن ، ترك فيها المحاولة للقاضي الإنجليزي « سياردن ولمور » الذى نشر فى عام ١٩٠١ كتابه (العربية المحكية فى مصر) .

• • •

ويتوارى الأجانب زمناً من ميدان الصراع بين دعاة العامية وحماة الفصحى ، موجهين اهتمامهم إلى التمكين للغة الإنجليزية من مناطق النفوذ والسيطرة على المجال العلمى والتعليمى . إلى أن عاد « وليم ويلكوكس » إلى ميدان الصراع الأول ، بعد أن غاب عنه نحو ثلاثين عاماً ، فترجم الإنجيل إلى العامية سنة ١٩٢٥ ، ونشر فى عام ١٩٢٦ رسالة بالإنجليزية ادعى فيها أن « سورية ومصر وشمال أفريقية ومانسة ، تتكلم البونية لا العربية ! » ثم ألف كتاباً بالعامية عنوانه (الأكل والإيمان) ظهرت منه ثلاث طبعات إلى سنة ١٩٢٩ .

ولست أدري ما إذا كانت عودته إلى محاربة الفصحى بالعامية عن يأس من قهر الإنجليزية للغة العربية التى ظلت لغة الثقافة والصحافة والتأليف والأدب على رغم عزلها عن التعليم والعلوم العصرية ؟ أم كانت تلك العودة إصراراً على موقفه القديم وعجزاً عن التخلي عنه ؟

وأياً ما كان الأمر ، فإن فكرته وجدت دعاء من الكتاب المصريين أنفسهم فترك الأمر لهم ، عن يقين بأنهم يستطيعون أن ينجحوا حيث فشل هو ورفاقه الأجانب فى المعركة اللغوية ، إذ يكفى أن تصدر الدعوة إلى نبذ الفصحى من أجنبي ، ليأخذ الشعب منها موقف الحذر والشك والرفض . . .

• • •

ولعل الفصحى لم تجد من يخاصمها فى الربع الثانى من القرن العشرين ، مثل « الأستاذ سلامة موسى » الذى جند قلمه الطبع وأسلوبه اللين ومنطقه السهل ، للدعوة إلى نبذ الفصحى التى ورثناها من بدو الجاهلية فى عصر الناقة ، ويراد لنا أن نتعامل بها فى عصر الطائرة !

والأستاذ سلامة موسى كاتب مشهور له قراؤه ، وله مدرسته ومريدوه

وتلاميذه ، وليس أجنبيًّا غريباً مثل المهندس ويلكوكس والقاضى ولور ،
وليس مجهولاً من عامة المثقفين مثل الدكتور سبيتا . وقد ربط دعوته
إلى هجر الفصحى بدعوته العامة إلى إصلاح المجتمع وتقدم الأمة ، ومن
هنا كانت مظنة أن تنال من الفصحى ما لم تنله كل الحملات السابقة
لدعاة العامة .

” • • • ”

فى مقدمة كتابه (البلاغة العصرية واللغة العربية) قرر أن سلوكنا فى
البيت والشارع والحقل والمصنع هو قبل كل شئ سلوك لغوى ، لأن كلمات
اللغة تقرر لنا الأفكار والانفعالات وتعين لنا السلوك كما لو كانت أوامر .
« بل نستطيع أن نقول إن سيادة البريطانيين على الهنود ، أو المتمدين على
المتوحشين ، هى إلى حد ما سيادة لغوية : أى مجموعة خصبة وافية من كلمات
المعارف والأخلاق تحدث براعة فى الفن وتوجيها فى السلوك يؤديان إلى السيادة
وأحياناً إلى العدوان .

« وحين تحرم لغتنا من كلمات الثقافة العصرية تحرم أيضاً الأمة المعيشة
العصرية . فنحن مازلنا نعيش بكلمات الزراعة ولا نعرف كلمات الصناعة .
ولذلك فإن عقليتنا عقلية قديمة جامدة متبلدة تنظر إلى الماضى ، حتى إننا
نؤلف فى ترجمة ” معاوية بن أبى سفيان “ فى الوقت الذى يجب أن نؤلف
فى ترجمة عن ” هنرى فوردر “ عبرة الصناعة فى عصرنا ، أو عن الذرة وعبرها
للمستقبل . . .

« وإنى أعتقد أن ٩٠ بل ربما ٩٩ فى المائة من كتابنا ، سكتفون . وهذه
السلفية هى نتيجة لحرمان الأمة من الرقى الصناعى وقصرها على الزراعة
وعرقلة ، بل عرقلة كل تقدم صناعى حاولته الأمة فى السنين الستين الأخيرة ،
لأن المجتمع الصناعى كان جديراً بأن يحدث مجتمعنا مستقبلياً . يكتب مؤلفوه
بلغة الشعب ، وتتقل اهتماماتهم الذهنية من التأليف عن قدماء العرب إلى
التأليف عن مشكلاتنا العصرية . . وإنى بالطبع لا أغفل هنا عن ارتباط

اللغة بالتقاليد والعقائد ، وأن هذا الارتباط من أسباب الكراهة للتطور اللغوى .
أعنى أن العقلية الكلاسيكية فى اللغة ، عقلية التقاليد التليدة ، قد أحدثت لنا
مزاجاً أدبياً اجتماعياً هو النظر إلى الماضى ومحاولة استرداد الأمس . والتبيلد
والتجمد . فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى أن نشق طريقنا إلى المستقبل .

وصرح بأنه أراد بتأليف الكتاب ، أن يساعد على الرقى بتجديد اللغة ،
وأن حسبه من هذه المساعدة أن يشخص الداء ويؤمى إلى الدواء وبنيه الغافلين
وينصح للمعاكسين .

وأعظم هؤلاء المعاكسين فى رأيه :

« هم الذين تخصصوا فى درس اللغة العربية مثل خريجي دار العلوم .
فإن تخصصهم حال بينهم وبين دراسات بشرية عديدة فضاعت آفاقهم وصاروا
ينظرون إلى لغتنا كما لو كانت إحدى اللغات المتحجرة فى المعابد لا ينبغي
تغيير كلمة ، أو حتى أسلوب التعبير فيها ، أو خطها .

« زد على هذا أنهم قد أصبحوا طبقة لهم وضع اقتصادى ووجدان طبقى
ينهضان على استبقاء العربية فى جمودها الحاضر . ولذلك يخشون التغيير ويرون
فيه هجوماً على مصالحهم الاقتصادية . ولكن يجب أن نذكر أن مصلحة
الأمة يجب أن تعلق على مصالح أمة طبقة فيها »

• • •

وهكذا أدخلت الطبقة الاقتصادية فى المعركة ، سلاحاً ضد اللغة
النصحى ، ووُضعت تقاليدنا الدينية وميراثنا التاريخى ، مع عوائق التطور
والتقدم والتحضّر !

ولا نسأل الداعية المصلح ، لماذا لم تضار السيادة اللغوية التى أتاحت
للإنجليز العدوان على المتوحشين ، بعلماء لغتهم الذين يعكفون على فقه أسرارها
وأصولها القديمة ، ويكونون طبقة من المتخصصين متميزة عن العامة ؟ ولماذا

لم يحل دون السيادة السياسية المرتبطة بالسيادة اللغوية ، وجود خاصة من العلماء الإنجليز في الفلسفة والاجتماع والتاريخ والطبيعات والرياضيات ، عِلْمُهُمْ غير مبذول لجماهير الشعب ولا هو مما يعرفه عامة المثقفين ؟ وفي الإنجليز متخصصون في اللغة الكلاسيكية ، وفي برامجهم التعليمية دراسة نصوص قديمة وأدباء من العصور الخالية ، وبين مؤرخيهم من يؤلفون في أسلافهم ، بل فيهم كذلك مستشرقون تخصصوا في دراسة لغتنا وتاريخنا . وألفوا في شعراء الجاهلية ، وفي معاوية بن أبي سفيان وغيره من أعلام الشرق والعرب والإسلام ! !

لا نسأل الداعية المصلح عن هذا ومثله ، بل نتابع عرضه لمشكلاتنا اللغوية ، فنراه في فصل عن " اللغة والتطور البشرى " يبدأ بتقرير أن من أسباب تطور الإنسان وسيادته على الحيوان « أن ضخامة دماغه قد أعدته للتفكير السديد » ٤ (١) .

[وأظنكم تعلمون أن من الحيوان ، كالقيل والحزير والئيس والبغل والحمار ، ما هو أضخم دماغاً من سيده الإنسان] (٢) .

ولكن الكاتب لا يرى هذا ، ويمضى في الحديث عن الحيوان اللغوى - الإنسان ذى الدماغ الضخم - لينتهى إلى « أن كثيراً من التفكير الحسن بل أحياناً من العبقرية ، يعود إلى أن اللغة التى نستعمل كلماتها قد بلغت من الرقى درجة عالية ، لأن الكلمات في هذه اللغة تحمل المعانى الأنيقة الدقيقة التى لا توجد في كلمات لغة أخرى متخلفة . ويتضح هذا عندما نقارن بين اللغة الألمانية وبين لغة متخلفة من لغات أفريقيا السوداء ، فلو أن "جيته" وُلد في قبيلة أفريقية لما استطاع أن يتبع الثمرات الزكية التى نطقها من مؤلفاته ، لأن اللغة القبلية لم تكن عندئذ لتسعه بالكلمات التى تؤدى معانيه ،

(١) الرقم هنا وفيما يلى من فقرات منقولة بنصها من كلام الأستاذ سلامة موسى ، يشير إلى موضع الفقرة من كتابه (البلاغة العصرية واللغة العربية) الطبعة الثانية - المطبعة العصرية بالقاهرة .

(٢) القوسان المربعان [] يميزان ما أعلق به على ما أنقل من كلام المؤلف .

بل كانت تبقى هذه المعاني أجنة تؤلمه بالمخاض ولا تجد المخرج من ذهنه ،
أو تخرج جهيضة » - ٦

[ولا أدري من أين بلحيته ، لو كان قد ولد في أفريقية السوداء ، هذه المعاني
والأفكار التي يريد أن يعبر عنها فلا تسعته اللغة الإفريقية بالأفكار] بعد أن قرر
الأستاذ سلامة موسى نفسه ، في الفقرة السابقة مباشرة على عبقرية جيته واللغة
الإفريقية :

« إننا نفكر بالكلمات . وصحيح أننا نستطيع التفكير الساذج البدائي
بلا كلمات كما يحدث في الأحلام ، ولكن التفكير الذي تتداخل فيه العوامل
وتنشط ساحته يحتاج إلى كلمات . ويكاد يكون من المستحيل أن نفكر
بذكاء أو منطق في أي موضوع بلا كلمات . وليس بعيداً أن يكون التفكير
في صميمه كلمات غير منظوقة كما يقول واطسون »

ثم يقرر في فصل تال « أننا نفكر بالكلمات . . . والكلمات هي التي
تكسبنا اتجاهها أخلاقياً أو تكون لنا مزاجاً فنيا » - ١٧

ويتحدث الأستاذ بعد ذلك عن " الأنثروبولوجية واللغة العربية "
وأعزده فيما غاب عنه من أسرار العربية وهو يخوض في دقائق من الاشتقاق
والترادف وتطور الدلالات . وقد أرى أن ما أعوزه من فقه ذلك كله ، هو الذي
أسلمه إلى القول في بدائية لغتنا :

« إن اللغة هي بمثابة المصنع الذي يعيش في عصرنا ، ومع ذلك يجمع
في مستودعاته فأساً من الحجر كانت تستعمل قبل ثمانية آلاف سنة ، وإبرة
من الشوك كان أسلافنا يستعملونها قبل مائة ألف سنة ، وسيفاً من البرونز
كان يستعمل قبل أربعة آلاف سنة ، وبين مصنوعات آخر مثل الرديفون
والمصباح الكهربائي والسولفانيلاميد . ومن هنا هذا الارتباك الذهني الذي
يؤدي إلى قلة الفهم أو اختلاطه . ذلك لأننا نستعمل أدوات قديمة كى تؤدي

لنا خدمات جديدة » - ١٤

ومن الأمثلة التي ساقها على بدائية لغتنا ، وارتباك ذهننا من استعمال لفظ قديم لدلالة جديدة ، أننا نستعمل الفعل «أحصى» بمعنى عد ، فإنه مشتق من الحصى أى صغار الحجر . وذلك لأن الإنسان البدائي كان ' يجهل العد بالأرقام فكان إذا شاء مثلاً أن يعرف ما عنده من خراف . وضع في جعبته عن كل خروف حصاة « ١٣

[حين يذكر في الوقت نفسه ، أن الأمر لا يختلف عن هذا في الفعل الإنجليزي (Calculate) بمعنى حسب ، وهو مأخوذ من اللفظ الروماني القديم (Calculus) بمعنى الحصاة أو الحجر ، وقد كان الرومان يستعملون الحصى في العد والحساب منذ آلاف السنين .

وكنا نؤثر له أن يذكر أيضاً أن اللغة الإنجليزية لا تزال تستعمل في عصرنا ألفاظ الفأس والإبرة ، مع الرديفون والحرامفون !]

وحشد الأستاذ سلامة موسى منطق وقلمه . ليدخل في صميم المعركة بين العامية والفصحى ، إذ « يجب ألا يكون للمجتمع لغتان ، إحداهما كلامية أى عامية ، والأخرى مكتوبة أى فصحية ، كما هي حالنا في مصر وسائر الأقطار العربية . لأن نتيجة هذه الحال أن اللغة المكتوبة تفصل من المجتمع فتصبح كأنها لغة الكهان التي لا تتلى إلا في المعابد . ويتقطع الاتصال الفسيولوجي بينها وبين المجتمع فلا تتطور . . .

« واللغة الحية هي الجهاز العصبي للمجتمع أو الشبكة التليفونية التي يتخاطب ويتفاهم بها أفرادها . فإذا عجزت عن تأدية هذا التخاطب والتفاهم فهي خرساء ، أى بمثابة الشبكة التليفونية المقطوعة أو التالفة ، ويجب السرعة في ترميمها .

« وقد عرفنا هذا الخرس في كثير من شئوننا الثقافية : فإن المسرح مثلاً لم يرتق ، لأننا لم نستطع تأليف الحوار باللغة الفصحى بين أشخاص الدراما . لأن الكلمة الفصحى ليست جدوية ، أى أنها لا تنقل إلينا جو الحديث ، لأننا ألقنا أن يكون الحديث باللغة العامية ، فترجمته إلى اللغة

الفصحى بصدمننا ويشعرنا بأن هذه الكلمة ليست في مكانها أى ليست في جوها الاجتماعي .

« ولغتنا خرساء - والخرس هنا أوضح وأخطر - من حيث إننا جعلناها مثل لغة الكهان جامدة لا تتغير .

« فالفاعل القائم الآن بين لغتنا ومجتمعنا ليس تفاعلا صحيحاً . فإن هناك انفصالا يحول دون إيجاد الدورة اللغوية كاملة به ، ولذلك حدث المرض من هذا الانفصال ، وهو الجهل لنحو مائة علم وفن لا يمكن أن نعرفها إلا إذا تركنا لغتنا ونطقنا بلغة أخرى » - ٢٣

ونظر الداعية المصلح إلى مظاهر التخلف في مجتمعنا ، فردّها كلها إلى عقم لغتنا الخرساء . ودخلت قضية الديمقراطية في الموضوع ، فإذا لغتنا هي المسئولة عما يعوزنا من العدالة الاجتماعية ، لأننا ورثناها من مجتمع كان أتوقراطيا أرستقراطيا (ص ٢٤) كما دخلت قضية المرأة في المعركة فإذا اللغة مسئولة كذلك عن روايب تخلفها واستعبادها « فقد ألغى المجتمع العربى القديم المرأة من الحياة الاجتماعية إلغاء يكاد يكون تاما ، أما نحن فقد رددنا الاعتبار للمرأة المصرية ، ولكن مازلنا نستعمل الكلمات القديمة فنقول : أم فلان أو حرم فلان ، ولا نذكر الاسم مع أن الاسم جزء من الشخصية وإسماله هو سبة المرأة . وإسمالنا لاسم المرأة هو تراث لغوى قديم يحمل إلينا عقيدة اجتماعية يجب أن نكافحها »

[وعجيب هذا حتما ، فإن المرأة الإنجليزية ، وكل نساء الغرب الحديث الراقى ، يتزوجن فلا يعرفن بغير حرم فلان ! ونحن هنا نحفظ بأسمائنا بعد الزواج ، ونتعامل في الحياة بأسمائنا وذواتنا ، فأبسط معلمة في مدرسة ابتدائية تعرف باسمها لا باسم زوجها ، على حين تُعرف العالمة الغربية الكبرى باسم « مدام كورى » ! وتعرف حرم رئيس الولايات المتحدة ورئيس الجمهورية الفرنسية ، ورئيس الدولة الألمانية ، ورئيس وزراء إنجلترا ، بأسماء أزواجهن ، فهن : « مسز نيكسون ، ومام ديجول ، وفراو لوبكه ، ومسز نيلسون » !

لغتنا والحياة

ولا يمكن أن تكون هذه المجتمعات الراقية ، قد ورثت عنا هذه السُّبَّةَ ، لأن المجتمع الإسلامى القديم أبرأ المرأة من إسقاط اسمها الذى هو — أى الإسقاط — سبة ، تستوى فى ذلك سيدات بيت النبوة : يعرفن بأسمائهن ، فيقال : خديجة بنت خويلد ، وعائشة بنت أبى بكر ، وفاطمة الزهراء ، وسكينة بنت الحسين . .

وأصغر معلمة فى مدرسة ابتدائية أو ممرضة فى وحدة صحية بإحدى قرى الريف أو نجوع الصعيد] .

• • •

وماذا عن " الأحافير اللغوية " التى يراها الأستاذ أغللا معوقة لرقينا ، « لأننا نستعملها فنحمل المجتمع عبئاً باهظاً ، على حين نعرف معاجم اللغات الأخرى أحافير من الكلمات لا تجرى على لسان أو قلم ، وإنما تحتفظ بها للدراسة كما تحتفظ المتاحف بأحافير الديصور وغيره » ؟

« أطفالنا ينشثون وهم يستمعون إلى كلمات العفاريت والجن والنجوم ، فتتغرس فيهم عقائد يعجزون عن التخلص منها حتى وهم فى الخمسين أو الستين من أعمارهم » — ٢٥ .

[فهل تخلو قصص الطفولة فى المجتمعات الغربية ، من مثل هذه الألفاظ ؟ وهل انتهى عهدهم بمثل ذات الرداء الأحمر وسندولا ، وعبارة الأميرة النائمة ؟ بل هل تخلص الأدب الإنجليزى من مثل ساحرات ماكبث وغابة « جيمس بارى » فى : عزيزى بروتس ؟] .

« ونحن نقول : علا نجمه أو أفل نجمه » (٢٦)

[فهل تخلى المجتمع الغربى الراقى ولغاته ذات السيادة ، عن مثل عبارة « نجوم المجتمع » و « كواكب السينما » ؟]

ومن أسوأ أحافيرنا اللغوية الكبيرة الضرر على مجتمعتنا ، « كلمتا شرق

وغرب ، توجيان إلينا أننا ننتمى إلى آسيا وأفريقيا ، وكأننا على عداء مع أوروبا وأمريكا » (٢٦) .

[فهل حذفت اللغات الأوروبية كلمتى شرق وغرب ، بمثل دلالتها فى لغتنا العربية ؟ وإن كانت قد حذفتها دون أن ندرى ، فماذا صنعت بالواقع الجغرافى والقاموس الدولى ؟]

ومن أحافيرنا اللغوية : كلمات الدم والثأر والعرض ، تؤدى إلى قتل نحو ثلثائة امرأة ورجل فى بعض مديريات الصعيد كل عام ، وسكان الوجه البحرى لا يقتلون مثل هذا العدد من الرجال والنساء لأجل العرض والثأر لأنهم لا يستعملون هاتين الكلمتين فى حديثهم (٢٧)

[فهل صحيح أن سكان الوجه البحرى لا يستعملون هاتين الكلمتين من الأحافير اللغوية ؟ بل هل أخرجت كلمات الدم والثأر والعرض من الاستعمال اللغوى فى المجتمعات الغربية الراقية ؟]

أسئلة لم يشغل الكاتب المصالح باله بها ، وكل ما عناه هو أن يصل من هذا العرض لأحافيرنا اللغوية . إلى نتيجة وهدف :

« اللغة التى تلابس مجتمعا هى لغة السوق والبورصة والمصنع والنادى والبيت والكتاب والجريدة والمجلة والمنبر والمدرسة ، أما إذا انفصلت واقتصرت على الكتاب وهجرت المجتمع فصار لنا لغتان . فإن لغة المجتمع ستبقى حية ، ولكن لا تجد العناية التى يستحقها الحى فهى تعيش فى وكس وضعف ، وتبقى اللغة الأخرى كأنها أحافير تحفظ وتصان كما تصان لغة الكهنة فى المعابد عند المتوحشين » ٢٧ .

[وهنا أيضاً . لم يشغل الكاتب باله بالسؤال عما إذا كان مفكرو الغرب وفلاسفته وعلمائهم وأعلام أدبائه . يكتبون حقاً بلغة السوق والبورصة والمصنع والنادى والبيت ؟]

بل مضى يتابع البحث فى " ضرر اللغة " علينا ، فإذا عقدة بلاغتنا

العربية أنها تخاطب العواطف دون العقل » وإذا جعلنا المنطق أساس البلاغة العصرية فإننا عندئذ نجعل قواعد المنطق ونظريات إقليدس مما يدرس للتفكير الحسن ، وهو الغاية الأولى للبلاغة . ونبين قيمة الأرقام في التفكير الحسن » ٣٠ .

[ول اتصال ببعض ما يدرس من البلاغة في الآداب الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، ولا أعلم أنهم أسقطوا العواطف من مجال البلاغة ، أو استبدلوا بأسرار فن الجمال وفن الكلمة ، نظريات إقليدس وحساب الأرقام ، أو ألغوا الوجدان لتتجرد بلاغتهم لمخاطبة العقل وحده ! !

ولنما الذى أعلمه أن فنية البلاغة قيمة جمالية لا علمية رقمية ، وأن الأسلوب الأدبى لا يختلط عندهم بالتقارير الإحصائية ونظريات أينشتاين وإقليدس ، وأن التأثير فى العواطف والنفاذ إلى الوجدان ، ما يزالان غاية منوطة بفن الكلمة واثار الفنون الجميلة !]

على أن هذا الذى ذكره الكاتب المصلح من ضرر لغتنا ، يهون بالقياس إلى ما نلقاه بعد ذلك من تحميل اللغة العربية مسئولية الجنون والإجرام ! وهذا جديد لم يسبق إليه الأستاذ سلامة موسى ، فيما أعلم !

فجرائم الدفاع عن العرض التى تذكر لنا صحفنا كل يوم جريمة أو اثنتين منها « هى جرائم لغوية لا أكثر . . . وحرادث الجنون تتكرر فى مصر بسبب اللغة .. والشاهد على ذلك أن السيدة الأنيقة تجد توعكاً أو توتراً فى سن الثامنة أو التاسعة والأربعين . فتستشير الطبيب فيقول لها إن حالتها تعد طبيعية فى سن اليأس .. والواقع أن جميع نساؤنا يضطربن لهذه الكلمة وقد يزيد الاضطراب بسبب الضرة أو الحماة أو الخوف من الطلاق فيصير جنوناً أو على الأقل شذوذاً يلفت النظر ويحتاج إلى العلاج » ٣٦ ، ٣٧ .

[وأرى الكاتب نسي هنا بلاغة الأرقام فلم يحاول أن يقدم لنا إحصائية عن عدد المحنونات من نساء مصر ، لمجرد سماعهن كلمة سن اليأس ؟ كما نسي أن الجمهرة الغالبة من نساء الشعب المصرى ، يمضين عمرهن كله دون أن يسمعن كلمة سن اليأس من طبيب معالج ، أو يفقهن دلالتها !

بل نسي كذلك أن يحدثنا عن نجاة الغربيات من هزة هذه الفترة من العمر . لأن لغاتهن أعفتهن من كلمة سن اليأس التي هي عندنا ذريعة الجنون والخبال والشذوذ، فخلت منهن عيادات الأطباء ومصحات الأمراض النفسية !

بل نسي كذلك أن كل لغات الدنيا ، فيها كلمات الفضائل والذائل وفيها كلمات المنطق والخبال ، وليست العربية بدعاً بين اللغات ، لتستجيب إلى دعوة الأستاذ سلامة موسى ، فتلغى من معجمها كلمات الرذائل والجريمة والخبال ، ولا تبقى فيه إلا كلمات الفضيلة والمنطق . هذا لتكون شرفاً مهذبى السلوك [قال :

« على قدر كلمات الفضائل في لغتنا نكون فضلاء

وعلى قدر كلمات الرذائل في لغتنا نكون أردالا

وعلى قدر المنطق في كلماتنا نكون منطقيين في سلوكنا .

وعلى قدر الخبال في لغتنا نكون مجبولين في سلوكنا » ٣٨

[ولو صح ما ذهب إليه من أن إسقاط هذه الكلمات من معجم لغتنا ، يخلص مجتمعتنا من أمراض الجنون والإجرام ، لكان المجتمع الأمريكى أحوج منا إلى هذا الإجراء اللغوى ، لينجو مما يشكوه من انتشار الجرائم والأمراض العقلية والنفسية .

ولو صح ما قرره من أن « الأمم ارتقت بكلمات ذاتية مثل مروءة وشرف وشهامة وحياء وأنفة ، كما انحطت بكلمات ذاتية أخرى مثل شتمة وكفر ونجاسة — ٤٢ » ، لكان للأمة العربية أن تتحدى بقيها كل دول الغرب ، لكثرة ما فى معجمنا وأساليبنا من كلمات المروءة والشهامة والأنفة ، التى رآها الأستاذ سلامة موسى نفسه ، مسئولة عن كل جرائم العرض والتأثر [.

• • •

ونحضى مع الداعية المصلح ، لنسمع مقترحاته فى بلاغتنا العصرية ، وأغلاها اللغوية .

إنه يقترح أن نقول مثلاً : يبلغ ذكاء هذا الصبي ١١٥ درجة ، بدلاً من أن نقول : هذا الصبي ذكي !

وأن نقول : بلغت الدرجة المئوية للحرارة أمس ٣٩ درجة ، بدلاً من أن نقول : كان يوم أمس حاراً مرهقاً .

[فهل هكذا يقول الإنجليز في لغتهم اليومية فضلاً عن أساليبهم البلاغية ؟ وهل يمثل هذا يقيسون بلاغة شعرائهم وكتابهم ، وعبرية حكمائهم وفلاسفتهم ومفكرتهم ، من شوسر وشكسبير وملتن ، إلى ديكنز وشلي وبرونتي وبرناردشو وإليوت ، ولز وراسل وتوينبي ؟ . . .]

ويهر الأستاذ سلامة موسى من الإنجليز « أنهم يفرقون بين نوعين من الحب باستعمالهم love أو like ، على حين لا نجد في لغتنا غير كلمة ”أحب“ نطلقها على الحب البيولوجي ، وحب الملوخية ، والعلاقة بين الأم وأطفالها ، وحب الإنسان لله . . . نطلقها عليها جميعاً لأننا كالمتموحش حين يسمى ما زاد على العشرة : كثير » - ص ٤٤

[ووددت لو أنني أرحت الكاتب الكبير من ”عقدة المتموحش“ هذه ، فقلت له إن لغتنا العربية تتميز بين معاني الحب بحس مرهف ، ونحن الموصومين عند الأستاذ بالتحجر والتبلد ، ندرك فروق الدلالة لكلمات : الحب ، والعشق ، والاشتهاء ، والرغبة ، والتعلق . والمودة ، والحنان . والبر والإيمان والوجد . وهذه الفروق في الدلالة اللغوية ، هي ما التبت عند الكاتب المصلح بالمتراذفات فحسبها « ثثرة صبيانية يضع بها الوقت ، واللغة الحسنة تتوق المترادفات » ص ٢] .

ويسخر المؤلف بمصحح شيخ ، عرفه في إحدى الجرائد كان يشرف على اللغة ويمنع تسرب الأخطاء . فكان يعارض في كلمة ”ماهية“ الموظف ويضرب عليها ويضع بدلاً منها مرتباً أو أجراً ، فكان المخبر الذي كتب الخبر يرى عقب طبع الجريدة أن وكيل الوزارة أو رئيس القلم قد زيد أجره ، فيهرول إلى الشيخ ويصرخ ويهيج ، ولكن الشيخ يصر على أن كلمة ماهية لم ترد

قط في المعاجم بمعنى أجر ، ولا عبرة باصطلاح الحكومة على المعنى الجديد لها (ص ٤٧) .

[وأقول للداعية الاشتراكية والعصرية ، إن كلمة « ماهية » التي أعجبت به بدليلا من الأجر ، ليست إلا من رواسب (تراب الميرى) ولوائحه المهينة التي كانت لاتعرف ماهية الإنسان العامل إلا بأجره . فهل تقبل كرامتنا العصرية هذه الدلالة المهينة على ماهية الإنسان العامل منا . بالأجر الذي يتقاضاه نظير عمله ؟ !

لقد كان المصحح الشيخ أهدي حيسا ، حين أصر على أن وكيل الوزارة أو رئيس القلم إنما يتقاضيان أجراً عن عمل . وهذا هو مفهوم الاشتراكية التي دعا إليها الأستاذ سلامة موسى ، ثم تعثر هنا في أول كلماتها . فجعل ماهية الإنسان فيما يقبض من مال . واختار وكيل الوزارة ورئيس القلم لبيان بشاعة استعمال الأجر معهما . والأمر معهما لا يختلف عما يتقاضاه سائق سيارة الوكيل وحاجب رئيس القلم . من أجر العمل !

وإذ يرى الكاتب أن « الكلاسية داء الأدب العربي . وأن داء اللغة العربية في جميع الأقطار العربية هو داء الكلاسية الرجعية الثليدة » يقدم لنا مثلاً أعجبه من قول شكسبير في رواية هاملت : « فما تحرك فأر » ويرى أن إنجلترا التي ألف فيها شكسبير ولم يأنف من ذكر الفأر في درامة عالية مثل هاملت ، لم تكن رجعية ، بل كانت قد استقرت فيها الحرية والبرلمانية بعد قطع رأس تشالس الأول . . .

[وفي مثل هذا أعتمر له ، فإنه بحيث لا يدري أن القرآن الكريم ، الذي يجلو العربية في أعلى بيانها وأتقى أصالتها ، لم يأنف من استعمال كلمات الذباب والبعوضة والخل والعنكبوت والحُمير والبغال ! ونحن نتلو آياتها في كتابنا الأكبر فتراها من البيان المعجز :

« بأيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله

لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ،
ضعف الطالب والمطلوب » - الحج ٧٣

« إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها .. » - البقرة ٢٦
« مثلاً الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً
وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون » - العنكبوت ٤١
« واقصد في مشيك واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات
لصوت الحمير » - لقمان ١٩ .

« مثلاً الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً » -
الجمعة ٥]

ويتابع الكاتب اختيار دروس لنا من الإنجليزية ، فيذكر من تظورها
« أن الملك جيمس حين زار كنيسة سان بول الكاندرائية عقب انتهاء المهندس
من بنائها ، عبر عن إعجابه بهذه الكلمات : Amusing, awful, Artificial
فسر المهندس غاية السرور . ولكن هذه الكلمات قد انتقلت في عصرنا
من معنى الاستحسان إلى معنى الاستهجان والاستهزاء . وهذا هو التطور ،
وهذا هو الرقي » ٤٦ .

[ولا أضرب له مثلاً من تطور « طول اليد » من الدلالة على الكرم ، إلى
السرقه ، و « الصعلوك » من الفتوة إلى (البلطجة) والقرية من الحاضرة
نقيض البادية ، إلى أصغر بلدة في التقسيم الإداري ، وحرية المرأة من تصونها
في البيت إلى خروجها من البيت . . بل أقول إنى لو مضيت أعرض
لموضوع تطور الدلالات لألفاظ العربية ، لما اتسعت له محاضرات الموسم كله !]

ويتصور الأستاذ بكل بساطة ، في الفصل الذي كتبه عن « كلمات تنبئ
الأخلاق » أن « لو كانت لغتنا تحوى خمسين من هذه الكلمات أو التحف الغالية .
مثل المروعة والبر والشهامة والفتوة والمجد ، لكان في مقدورنا أن نبني بها
أخلاق الأمة ونعين لها النفسية التي تعيش بها في سعادة ورفاهية » - ٦٦

[ولا أجادله في تصوره ، لكنى أعتقد أن أى أمة عربية ، يستطيع أن يسرد من معجمه اللغوى مئات من مثل هذه التحف الغالية التى تبنى الأخلاق ! والمجتمع الأمريكى يئن من ضراوة الجرائم الخلقية ، وما أظنه يعتمد في مكافحة الجريمة على شحنة من الكلمات الطيبة فحسب !

ويجتمع الصعيد عندنا ، تروج فيه كلمات الشهامة والشرف والقوة والمروءة ، وقد عدها الكاتب مشولة عن جرائم العرض والشرف !

ثم لا أدري كيف يستقيم هذا الفصل كله ، مع ما أنكره المؤلف من « رفض قصيدة لأبي نواس ، وهو المجدد العظيم ، في إحدى المباريات الأدبية » ٥٣ أولعله لم يقرأ ديوان أبي نواس ، المجدد العظيم ، وهو مشحون بصور قصائد ماجنة من الشذوذ الجنسي والانحراف الخلقي ، وتفنن السكارى المخبولين !]

• • •

ويقدم الأستاذ تفسيره الاقتصادى للغة العربية وأدبها ، فبرى « أن المجتمع العربى الذى ورثنا منه أدبنا ولغتنا الكتابية ، كان مجتمعنا إقطاعياً زراعياً . وكان مجتمعاً دينياً ، رئيس الدولة يحمى الدين ، ويحمى الكلاسيكية أى التقليدية فى اللغة » ٩٣

أو كما قالها الأستاذ بعبارة أوضح ، فى فصل سابق :

« فاللغة عند الحكومة المصرية ليست لغة الديمقراطية والأتومبيل والتليفزيون بل هى لغة القرآن وتقاليد العرب » - ٥٥

وعلى هذا النحو يمضى الكاتب فى بيان ما سماه « شذوذ لغتنا » ومرضها بداء التقليدية ، لكى نعرف « لماذا نكره إلغاء الإعراب وتبسيط التعبير بفأر شكسير واصطناع اللغة العامية كى تعبر الهوة التى تفصل بين الأدب والشعب واتخاذ الخط اللاتينى ، وأيضاً حرية المرأة » - ٥٥

ليصل بنا أخيراً إلى وجوب « أن تكون ثقافتنا كوكبية ، ولغتنا علمية ، وكتابتنا لاتينية » - ١٠٤

وذلك ما نعرض له في موضعه من المحاضرة التالية عن لغتنا وعلوم العصر ...

• • •

وأراني أظلت عليكم في عرض آراء الأستاذ سلامة موسى ومناقشتها . وكان في الإمكان إرجاء هذا الحوار معه إلى القسم الأخير الذي ذيلت به هذه المحاضرات . لولا أني أثرت أن يأخذ مكانه في سياق العرض التاريخي لمشكلة النصحى والعامية . لأن الأستاذ سلامة موسى يمثل وجهة النظر المعادية للنصحى في المرحلة التي تلت تحرك الأجانب إلى ميدان الصراع .

وترون أنه أضاف إلى ما قالوه في عقم النصحى ومسئوليتها عن تخلفنا العلمي وفاقنا الثقافية وفشو الأمية فينا ، مسئوليتها عن الجريمة والجنون واستعباد المرأة . كما عقد الأزمة بنقلها إلى دواحة المعترك السياسي والصراع المذهبي ، فاستحدث صلة حتمية بين الطبقة الاقتصادية والإقطاع والاستبداد والاستعمار . وبين هذه اللغة المعوقة للحرية والتقدم والتحول الاشتراكي الذي لا يمكن أن يتحقق مادام فينا علماء متخصصون في اللغة العربية ، والأصل عنده أن تكون كل العلوم شعبية لا تحتكرها فئة من الكهنة العلماء ! وقد تخاشى الكاتب جهوده ، الاصطدام بالقرآن الكريم والأزهر ، كيلا تحمّل آراؤه الإصلاحية على محمل التعصب الديني فيقيم بينها وبين الشعب سدوداً عازلة . . .

أما الأزهر فاستطاع الأستاذ أن يتقن الاصطدام به ، بتوجيه حملته على سدة النصحى ، إلى دار العلوم ، في مقدمة كتابه وفي فصل "الكلاسيكية داء الأدب العربي" وفي "الخط اللاتيني" وواضح أن دار العلوم ليست أدنى إلى التليدية من الأزهر ، وليس لها مثل تاريخه الطويل في العكوف على اللغة العربية وآثار السلف .

وأما القرآن الكريم ، فحاول الكاتب أن يتوآه بتوجيه الحملة إلى ميراثنا اللغوي من عصور بداوة يفصلنا عنها أكثر من ألف عام . غير أن القرآن

يفرض نفسه حتماً على كل موضوع يتصل بالعربية الفصحى ، ومن ثم لم يملك الكاتب في تشخيصه (للكلاسيكية داء الأدب العربي) إلا أن يقول :

« وإني بالطبع لا أغفل هنا ارتباط اللغة بالتقاليد والعقائد وأن هذا الارتباط من أسباب الكراهة للتطور اللغوي » المقدمة .

« اللغة عند الحكومة المصرية ليست لغة ديمقراطية والأوتومبيل والتليفزيون ، بل هي لغة القرآن وتقاليد العرب » - ٥٥

« وبلاغتنا يجب أن تكون بلاغة المنطق والمعرفة ، بدلا من بلاغة الانفعال والعقيدة » - ٦٥ .

ثم يقرر في (تفسيره الاقتصادي للغة والأدب الغربيين) أن « المجتمع العربي الذي ورثنا منه أدبنا ولغتنا الكتابية ، كان مجتمعا إقطاعياً زراعياً . . . ومن شأن الزراعة الجمود ، فنحن نزرع القمح الآن كما كان يزرع قبل ألف أو أثنى سنة . فلم يكن هناك ما يدعو إلى تغيير العقائد أو الأخلاق أو الكلمات الزراعية . . . »

وكان أيضاً مجتمعا دينياً ، رئيس الدولة فيه يحمى الدين ويحمى التلبية في اللغة - ٩٣

• • •

والشعب الذي كان الأستاذ سلامة موسى يخوض المعركة ضد العربية لحسابه ، لم يكن مستعداً لسماع كلمة واحدة تمس عقيدته وكتابه الديني ، بل إنه عن حدس الدفاع عن الذات ضد ذرائع التذويب والتغريب ، لم يكن يحسن النظر بدعاة الانسلاخ عن شريقتنا وعربيتنا ونبد تراثنا .

وحين لم يفهم الشعب ، على أى وجه ارتبط الأتمبيل والموطر بالبلاغة العصرية ، ولا من أى سبيل اختلطت هذه البلاغة بلغة الأرقام والمصنع والسوق والبرصة ، ربط الدعوة إلى نبذ العربية وتراثها ، بالمكيدة الاستعمارية

ضد العربية ، لسان قومية الأمة ولغة كتابها الديني الذي يحمي وجودها وعقيدها ، ويرهف وعيها^(١) .

ومن هنا لم تجد دعوة الكاتب المصلح سبيلا إلى التأثير على الوجدان الشعبي والنفوذ إلى الضمير القوي . غير أن آراءه عاشت مع تلاميذ مدرسته الذين حملوا دعوته إلى نبذ الفصحى وميراثها ، وبشروا بأرض جديدة غربية ، وأهروا بالمعامل على كل ما في أرضنا من جذور ، لم يستثنوا قيمتنا الدينية التي رأى بعضهم في التمسك بها « عملية انتحارية »^(٢)

وقد كان في كل ماقالوه عن جمود الفصحى وعقمها حيوية العاميات ، مغالطات مكشوفة :

فالزعم بأن الفصحى عاجزة عن مسايرة الزمن وتلبية حاجات حياتنا اللغوية ، مردود بما أثبتت على مسار الزمن من طواعية للنمو وصلاحية للبقاء .

واتهامها بالمستولية عن تخلفنا وانحطاطنا ، برده الواقع التاريخي الذي شهدا لغة الدولة الإسلامية في عصر قيادتها للحضارة الإنسانية .

والزعم بأنها المسئولة عن الجريمة والجنون ، مردود بأن المجتمع الأمريكي مثلا ، لم ينج بلغته الإنجليزية من ضرواة الجريمة ومآسى الجنون .

وما يقال عن حيوية العامية ، مردود بأنها حيوية محدودة المجال بحدود كل قطر إن لم يكن بحدود كل منطقة من التطور الواحد ، محدودة الطاقة بنطاق (السوق والبورصة) والأدب الشعبي. لاتتجاوزه إلى القضايا الفكرية والآداب العالية.

مردود كذلك بأن دعاة العامية أنفسهم — أجنبياً وعرباً — خاضوا معركتهم

(١) انظر أسئلة الوعي الشعبي في كتابي «قيم جديدة لأدبنا القديم والمعاصر» ص ٢٩٧ وما بعدها ، ط معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٧ والمعارف ١٩٧٠ .

(٢) انظر : صناديق الدمى ومقابر الأنبياء، وأصالة الوعي الشعبي في «قيم جديدة لأدبنا القديم والمعاصر» ص ٢٢٥ ، ٢٩٧ وانظر معه : «سلامة موسى وأزمة الضمير العربي المعاصر» للزميل غالى شكرى .

ضد الفصحى باللغة الفصحى ، وكتبوا آثارهم بها ، باستثناء قلة نادرة لا حساب لها في موازين القوى المؤثرة في الصراع وفي المناخ الفكري .

والزعم بأن العامية وسيلة تثقيف الأميين ، لا يعنى في الواقع سوى ترسيخ الأمية فيهم ، وترسيخ التخلف الثقافي .

وإقحام لغة الأرقام والصناعة على البلاغة العصرية والأدب الجديد ، يرفضه الواقع اللغوي لكل الدول العصرية التي تفرق بين لغة أينشتاين ، ونيوتن وماركوتشي ، ولغة ديكنز وجوته وفولتير وبرنارد شو وسمرست موم وإليوت وهيمينجواي . . .

والقول بأن السلفية اللغوية هي دائرنا الوحيد ، لا يبرئنا منه إلا أن « نؤلف في أقطاب الصناعة في عصرنا بدلا من التأليف في معاوية بن أبي سفيان وعلى بن أبي طالب وخالد بن الوليد وحسان بن ثابت » .

ينقضه ما يتعلمونه في المدرسة الغربية من أعلام العصور القديمة والوسطى ، وما يزلفون فيه ويترجمون ، من كتب ودراسات عن هوميروس وأرسطوفايس وملتون وشكسبير وإليوت . . . ، وليسوا من أقطاب الصناعة في عصرنا .

* * *

لكن مثل هذه القضايا بطبيعتها لا تعتمد على المنطق بقدر ما تعتمد على الجدل الخطابي والاستهواء الحماسي ، ونحاول أن تأخذ طريقها إلى مواطن التأثير بما تقحم على الميدان من دعوى الحرص على مصالح الجماهير والانتصار لعاميتها وتيسير سبل الثقافة لها . وحين يتصدى الواعون منا لتصحيح هذا الزيف والكشف عن مغالطات الدعوى . فإن هذا التصدى نفسه — على ما يبدو من ضرورته — لا يتجو من انفعال خطابي يتجه إلى التجريح والتنفذ أكثر مما يتجه إلى النقد الموضوعي والمنطق اللغوي والواقع التاريخي ، ومن ثم تحتدم الخصومة بين أنصار الأمية برفض الفصحى ، وأنصار للنصحي ينكرون العامية ، بما يلهب موقف العداء بين اللغة الأم المشتركة وطبقاتها

الإقليمية . وتدخل القضية في دوامة المعترك الديني والصراع المذهبي .

فبتسع الميدان لدعاوى مقحمة ومغالطات زائفة أثراً لهذه الخصومة الشاذة التي لا تعرفها طبيعة الحياة اللغوية في شرق أو غرب ، إذ يُحمل الدفاع عن الفصحى على الرجعية والسلفية والانغلاق والجمود والتوحش ، ويكون الانتصار للعامة عصرية "متطورة" وتفتحاً لعصر جديد . أو على وجه آخر : تُحمل الدعوة إلى العامة على الإلحاد والخيانة ، ويُسهم أنصارها بأنهم جنود غزو لغوي وفكري ، وحملة دعوة خطط لها الاستعمار من القرن الماضي .
وما أمر هذا كله منكم بيبعد^(١)

• • •

وفي غشية النقع المثار ، تتعذر الرؤية على كثير منا ، فيغيب عنهم أن حياتنا اللغوية عرفت هذه الظاهرة الطبيعية من قديم ، ويعرفها عصرنا في لغات الشرق والغرب . وتتعدد بهذا أزممتنا اللغوية فيميل بعضنا إلى التخفف من قيود الفصحى ويجد في العامة حرية وانطلاقاً ، ويشد الآخرون فينبذون في كتابتهم كل ما يجري على ألسنة العوام بدعوى الابتذال ، ويرصدون للأقلام يحصون أخطاء قد يكون لها وجه من الصواب .

من حيث لا يمكن ، ولا نملك ، أن نتخلى عن لساننا القوي أو نفرط في فصاحتنا التي يرزح بها وجودنا وبقاؤنا ورفينا الثقافي والفكري وتقدمنا الحضاري . كما لا نستطيع ولا نملك أن نلغي اللهجات المحلية التي يفرضها واقع تاريخي وسنن حتمية ، بل لا نستطيع كذلك ولا نملك أن نوحّد عاميات الأقطار العربية في عامة واحدة هي لهجة أهل القاهرة ، كما دعا إلى ذلك الأستاذ الدكتور إبراهيم أنيس في (مستقبل اللغة العامة المشتركة) .
ولكن الحديث عن أزممتنا اللغوية ، ينبغي أن ينتظر حتى تفرغ من المشكلات الأخرى التي تواجه وجودنا اللغوي في هذا العصر .

• • •

(١) وانظر كتاب « تاريخ الدعوة إلى العامة آثارها في مصر » للدكتورة نفوسة زكريا .

اللغة العربیة وعُلوم العصر

مازال جيلنا منذ وعى ، يسمع دعاوى
عن عجز العربية عن أداء العلوم الحديثة ،
حتى كدنا ننسى ماضيها العلمى فى عصر
الحضارة الإسلامية وفجر العصر الحديث .

ومنذ عُرِزَت عن الميدان العلمى تدريجاً
وتأليفاً ، صارت دعوى عجزها من المسلمات
البدئية التى لا تحتل الجدل ، ولم تفلح جهود
نصف قرن فى رد اعتبارها العلمى إليها . حتى
عرّبت « موسكو » علومَ العصر ، فهل كنا
نحترق فى البحر ؟ !

obeikandi.com

في صيف عامنا هذا ، تلقيت رسالة من مطبوعات موسكو العربية ، حسبها أول الأمر مما ينشره « المجمع العلمي للاتحاد السوفيتي » من ذخائر تراث لنا ، لا يرى فيه رواد الفضاء أكفان موتى وأحافير أثرية من عصور غبرت ، ولا يسمح بأن يجعل من اهتمامه بها موضوعَ جدل أو مناقشة ، ممن قد يتصورون أن جهد المجمع العلمي يجب أن يوفر كله للسباق الظافر إلى بحوث الفضاء .

ثم لما نظرت في كتب هذه الرسالة من مطبوعات موسكو العربية ، وجدتها جميعاً من صميم علوم العصر التي وُضعت لتكون مرجعاً للدارسين في الجامعات والمراكز العالية للتدريب الفنى .

وأوشكت أن أطرح هذه الكتب جانباً ، أو أتخفف من عبئها على خزانة كتي ، فألتبس لها من يهتم بموادها التي لا شأن لي بها ولا اتصال . غير أنى ما لبثت أن ذكرت ما أشتغل به من قضايا حياتنا اللغوية ، فأقبلت على هذه المعربات الواردة من موسكو ، أحاول أن أستبين إلى أى مدى طوَّع العلماء السوفيت لغتنا العربية ، لأحدث ما وصلوا إليه في المجال العلمي والصناعي .

بعد أن تحدثت في مادتها العلمية إلى عدد من علماء الاختصاص ، في مقدمتهم عالمنا الحكيم الطبيب « الدكتور محمد كامل حسين » والدكتور « أسامة أمين الخويل » وكيل هندسة القاهرة ، وابتنى « أمينة أمين الخويل » المعيدة بكلية العلوم ، والمتخصصة في الرياضيات الكونية ونظرية النسبية .

وكانت مفاجأة لي ، أن أقرأ لغتي في هذه العلوم العصرية ، سليمة واضحة ، دقيقة طيبة ميسرة ، لا تتوقف ولا تتعثر .

وأن أمضى في قراءة المواد العلمية التي انعزلتُ عنها طويلاً ، مأخوذة بلهفة من يكشف فجأة أن أسراراً من لغته غابت عنه .

بعد كل ما ضج به أفقنا العربي المعاصر ، من دعاوى طنانة رنانة ، تؤكد عجز لغتنا عن أداء علوم العصر ، وتبسط عذر جامعاتنا في الإصرار

على تدريسها بلغة أجنبية . وتندرنا بأن نظل حيث نحن ، متخلفين عن العصر علمياً وصناعياً ، إن نحن جازفنا بتعريب العلوم استجابة لعاطفة قومية ساذجة ، لا مجال لها في عصر العلم ؟

فنبلغ علمي ، أن جيلنا مازال منذ وعي ، يسمع هذه الدعوى تدوى كالطبول . فأما الذين جهلوا منا تاريخ الأمة فأيقنوا أنها حق لا ريب فيه ، وأما الذين اتصلوا بماضى الأمة ودرسوا تراثها العلمي ، فقد وقعوا في حيرة من أمر هذه العربية : من أين أصابها العقم وهي التي استطاعت منذ عشرة قرون وأكثر ، أن تستوعب كل التراث الفلسفي والعلمي للأمم القديمة ، وأن تنقل إلى المكتبة العربية ذخائر الفكر والعلم والثقافة لأعرق الحضارات التي عرفها التاريخ ؟

وكيف بعيها اليوم أن تنقل علوماً كان للعلماء العرب ، في عصر الحضارة الإسلامية ، مجدُّ الريادة فيها وتحريرها من المنهج التأمل الفلسفي الذي كان يسيطر على العقليّة اليونانية في عصر قيادتها للفكر الإنساني ، فبردها إلى غيبات مما وراء الطبيعة ، مترفعاً أو عاجزاً عن التجربة العملية بمنهجها الاستقرائي الدقيق وأجهزتها العملية ؟

• • •

ومن وراء ثلاثة عشر قرناً مضيت أساير التاريخ العلمي لأمتي ، وأنا في أخذة العجب لهذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية في موسكو .

من القرن الأول الهجري ، السابع الميلادي ، بدأ اتصال العربية بالتراث العلمي القديم ، في حركة ترجمة لكتب في النجوم . والفلك ، والطب والكيمياء ، برعاية أمير من البيت الأموي ، هو « خالد بن يزيد بن معاوية » الملقب بعالم بني أمية .

على أن الترجمة لم تلبث أن أخذت في العصر العباسي الأول وضعاً رسمياً ، تدخل به في سياسة الدولة وتعتمد على رصيد سخي من الخزائن العامة ،

وقد استوعبت الحركة في عصر الرشيد وولده المأمون ، ذخائر التراث الفكري والعلمي في الفلسفة والرياضيات والفلك والطبيعة ، لليونان والفرس والهند ومصر .

ثم ما لبثت العقلية الإسلامية أن هضمت ذلك التراث وتمثلته فأعطته روحاً جديدة ، على نحو ما فعلت مدرسة الإسكندرية بالفكر اليوناني حين هاجر إليها .

وتلقى معجم العربية رصيداً ضخماً من المصطلحات العلمية العربية ، إلى جانب الألفاظ العربية التي أمكن تطويرها للمصطلح العلمي . . ولا يذكر التاريخ أن حركة إحياء التراث العلمي قد انتظرت طويلاً ريثما يستقر رأي المختصين على إمكان نقل العلوم إلى العربية ، أو صدور فتوى من رجال الدين في جواز تعريبها .

وفي طمأنينة واثقة من تأييد العقيدة الإسلامية للعلم وتمجيدها للعقل ، انطلق علماء الدولة الإسلامية ينظرون في الظواهر الكونية بعقلية متحررة من الخصومة العتيقة المبررة بين العلم والدين ، فلم يمض قرن على تعريب التراث القديم حتى قدم هؤلاء العلماء جديداً أصيلاً من العلوم الطبيعية والرياضية ودخلوا التاريخ العلمي رواداً لآفاق لم يستشرف لها من قبلهم .

ومن القرى الثالث الهجري ، التاسع الميلادي ، بدأت المكتبة العربية تتلقى أوليات الكتب العلمية التي ألفها أولئك الرواد ، فاستطاعت لغتنا أن تؤدّي كل مصطلحات العلوم الرياضية والطبيعة ، كما تلقت المراصد الفلكية والمعامل التجريبية ، الأجهزة العلمية التي اخترعها علماءنا الذين تم على أيديهم نقل العلوم الطبيعية والفلكية إلى مجال البحث العلمي التجريبي ، وكانت في التراث البابلي مختلطة بالسحر ، وفي المدارس اليونانية داخلية في نطاق البحوث العقلية والدراسات النظرية والفلسفة التأملية . .

وكل هذا مما لا يحمله دارسو التاريخ العربى والحضارة الإسلامية . وقد كان جديراً بأن يصل إلى المتتمين منا إلى الثقافة الغربية ، عن طريق المؤرخين الغربيين للحضارة والعلم . وهم قد شهدوا بأن المرحلة الرائدة لعصر العلم الحديث تمت على أيدي علمائنا في العصر القيادى للحضارة الإسلامية ، واعترفوا بأن حركة الإحياء (الرينسانس) التى بدأت بها النهضة الحديثة في أوروبا ، إنما قامت أساساً على ما انتقل إلى الغرب الأوروبى من تراثنا العلمى والحضارى على المعابر التاريخية الكبرى في العصر الوسيط : الأندلس وصقلية والدرنديل ..

كما شهدوا بأن علوم الطب والرياضيات والفلك والكيمياء ، سارت في الغرب الحديث على اللروب التى عبدها رواد هذه العلوم من أعلام الدولة الإسلامية ، وقد ثبت تاريخياً أن أكثر مؤلفاتهم العلمية والفلسفية كانت تدرس في جامعات أوربية إلى القرن السابع عشر ، في أصولها العربية أو مترجماتها اللاتينية التى تتابعت من القرن الثالث عشر الميلادى .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يقرر تاريخ العلم أن رسائل « جابر بن حيان - ت ١٩٨ هـ » التى ألفها في الكيمياء باللغة العربية في القرن الثانى الهجرى ، عرفتها أوروبا في نصوصها العربية وفي ترجمات لاتينية ثم ألمانية (هوليامرد Holmyard : ١٧٦٨م) ثم ترجمها إلى الإنجليزية ريتشارد راسل R. Russel في طبعة لندن ١٩٢٨ .

وكتاب الحساب والجبر والمقابلة ، الذى ألفه « أبو عبد الله محمد بن موسى ، الخوارزمى - ت ٢٣٦ هـ » في أوائل القرن الثالث الهجرى ، نقله « جبرار الكرىمنى » إلى اللاتينية في القرن السادس عشر الميلادى ، ثم نشر « روزن : F.Rosen » نصه العربى مع ترجمة إنجليزية في طبعة لندن ١٨٥٠ .

ونشر « ناجل : A-Nagell » ترجمة الأبواب الخاصة منه بالحساب كما وضع « جاندتز S.gandz » كتاباً عن مصادر جبر الخوارزمى .

وكتاب (الخاوى لصناعة الطب) الذى ألفه طيبينا « أبو بكر الرازى

ت ٣١١ هـ « من علماء القرن الثاني وأوائل الثالث الهجرى » تحمل أقدم نسخة عربية منه فى أوربا ، تاريخ سنة ١٢٨٢ بمخطوطات المكتبة الوطنية فى باريس (الناسيونال) وترجمه إلى اللاتينية « جيرار الكرىموى » عام ١٤٨٦ ونص رينو فى ترجمته الفرنسية لكتاب إدوار براون (الطب العربى) على أن كتب الرازى التى ترجمت إلى اللاتينية بلغت خمسة وعشرين جزءاً .

والجزء الخاص منه بالتشريح ، والمعروف بالمنصورى - أهداه إلى المنصور بن إسحاق وإلى خراسان - نشرت ترجمته فى طبعة ميلانو ١٤٨١ م ثم نشره « كرينج P. Koning » - مع أجزاء من (كتاب الكناش الملكى) لعلى ابن عباس والقانون لابن سينا - فى طبعة ليدن سنة ١٩٠٣ ، وترجمه « برونر W. Brunner » إلى الألمانية فى طبعة برلين ١٩٠٠ .

ورسالته فى الجدرى والحصبة ، ترجمها « فاللا E. Vall » إلى اللاتينية فى طبعة البندقية عام ١٤٩٨ م . و« جاك جويل : J. Goupyl » إلى اليونانية فى عام ١٥٤٨ م . وترجمه إلى الفرنسية « جاك بوليه J. Poulet » فى طبعة باريس ١٨٦٦ ، ولوكليز ولينوار Leclerc, Lenoir فى طبعة باريس سنة ١٨٦٦ ، ونشر « جرينهيل W. Greenhill » نصه العربى مع ترجمة إنجليزية فى طبعة لندن ١٨٤٨ ، كما نشر النص العربى مع ترجمة فرنسية عام ١٨٩٦ ، وترجمه « كارل أوبير K. Opitz » إلى الألمانية فى طبعة ليبزج ١٩١١ .

وكتاب « على بن العباس - ت ٣٨٤ » كامل الصناعة الطبية ، المعروف بالكناش الملكى . ألفه بالعربية فى القرن الرابع الهجرى . وترجم إلى اللاتينية فى طبعة البندقية سنة ١٤٩٢ ثم فى طبعة ليدن سنة ١٥٢٣ .

وبصريات « الحسن بن الهيثم - ت ٤٢٢ هـ » التى ألفها بالعربية فى كتاب من سبعة أجزاء بعنوان (المناظر) عُرِفَ مع غيره من مؤلفات ابن الهيثم فى ترجمات لاتينية بالعصور الوسطى . ونشر « ريزنر Risner » ترجمة لاتينية كاملة للمناظر بأجزائه السبعة ، عام ١٥٧٣ . كما نشر كارل شوى K. Schoy بالألمانية عام ١٩٢٠ ، رسالة ابن الهيثم فى استخراج القطب .

وكتاب (الأدوية البسيطة) للطبيب الأندلسي «ابن الوافد» نشرت ترجماته اللاتينية نحو خمسين مرة .

وكتاب (التصريف) للطبيب الأندلسي «أبي القاسم الزهراوى - ١١١هـ» ترجم إلى اللاتينية في طبعة البندقية سنة ١٤٩٧ ثم في طبعتي ستراسبورج سنة ١٥٣٢ ، وبال سنة ١٥٤١ م . والجزء الخاص منه بالجراحة ، كان أساساً للتعليم الجراحى بأوروبا لبضعة قرون ، وقد نشر نصه العربى مع ترجمة لاتينية في طبعة أكسفورد سنة ١٧٧٨ م .

وقانون «الشيخ الرئيس ابن سينا ، أبى على الحسين - ت ٤٢٨ هـ» فى الطب ، المؤلف بالعربية فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، من خمسة أجزاء ، ترجمه إلى اللاتينية «جيرار الكرىموفى» ونشر فى طبعات ميلانو ١٤٧٣ ، وبادوا ١٤٧٦ ، والبندقية ١٤٨٢ ، ثم أعيد طبعه حتى بلغت طبعاته عشرين مرة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ونشر نصه العربى فى روما سنة ١٥٩٣ م .

وكتاب «الشريف الإدريسى - ت ٤٥٧ هـ» : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، الذى ألفه بالعربية فى صقلية ، فى القرن الخامس الهجرى ، كان المرجع الجغرافى الأول فى عصر النهضة ، ونشرت أجزاء منه فى لندن سنة ١٨٦٦ م ، وفى روما مع ترجمة إيطالية سنة ١٨٨٣ ، وفى مدريد سنة ١٠٩١ م وترجمه دى جويه ودوتز : M. D. Joeje, R. Doz إلى الألمانية فى طبعة أوبسالا سنة ١٨٩٤ م .

ومفردات «ابن البيطار - ت ٦٤٦ هـ» فى الأدوية التى ألفها بالعربية فى كتابه (الجامع فى الأدوية المفردة) فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عرفت فى نصها العربى بأوروبا فى عصر النهضة ، وترجمت إلى اللاتينية قبل أن ينقلها «فون زونهايمر» إلى الألمانية فى طبعة شتوتجارت (١٨٤٠ : ١٨٤٢ م) و «لوكلير» إلى الفرنسية فى طبعة باريس (١٨٧٧ : ١٨٨٣ م) .

ثم لا أمضى في سرد ما أحيا الغرب من ذخائر تراثنا العلمى^(١) الذى صد عنها المتفرنجين من مثقفينا ، كونها من حفريات ماضٍ غبر ، ومخلفات موقى أفناهم البلى .

فى الوقت الذى يشهد فيه مؤرخو الحضارة الغربيون ، من أمثال « سارتون وول ديوارنت ، وألدوميلى ، ونلليو ، وأمارى ، وآدم ميتز ، ولوبون ، ودى بور وأولبرى ، وبراون وكراشكوفسكى ، وتوينبى . وسيجريد هونكه ... » أن هذه الذخائر فى أصولها العربية وترجماتها اللاتينية ، هى التى أضاعت للغرب مسراه من ظلمات العصور الوسطى إلى عصر النهضة والعلم الحديث .

• • •

وأدع تاريخ العصر الوسيط ، فأرى لغتنا العربية قد ساءت التقدم العلمى فاستطاعت فى فجر العصر الحديث عندنا ، أن تأخذ دورها فى مدارس العلوم العسكرية والهندسية والطب والزراعة ، فى أوائل القرن الماضى . وحين اقتضت ظروف المرحلة الاستعانة بأساتذة من علماء فرنسا - مثل كلوت بك الطبيب ، والدكتور فيجى عالم النبات - كان المترجمون يعربون مؤلفاتهم ، ويحضرون معهم فى قاعات الدرس لترجمة دروسهم إلى اللغة العربية التى ظلت لغة التعليم الرسمية إلى بداية عصر الاحتلال . ولم يفكر أعضاء البعثات العلمية الأولى . الذين أوفدوا إلى فرنسا لدراسة العلوم الحديثة ، فى أن يعودوا فيلقوا دروسهم على طلاب المعاهد العليا بلغة أجنبية ، بل قدموا إلى مكبتنا العلمية رصيداً ذا بال من معرباتهم ومؤلفاتهم .

(١) من أقرب المراجع لهذا الموضوع ، كتاب (العلم عند العرب) لالدوميل ، ترجمة د . عبد الحليم النجار ، د . محمد يوسف موسى ط دار القلم بالقاهرة ١٩٦٢ . وتجد فى الفصل الأول من كتاب الدكتور توفيق الطويل (العرب والعلم فى عصر الإسلام الذهبى) ١ - النهضة العربية ١٩٦٨ ، دراسة وافية لهذا الموضوع مع فهرس لمصادر البحث ومراجعته .

وكتاب كراشكوفسكى : (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) فى ترجمته العربية للدكتور صلاح الدين هاشم ، نشر جامعة الدول العربية .

ألف الجراح الشهير « محمد على البقلی » كتاباً عربية في الجراحة ،
 و « محمد الشافعی » في الأمراض الباطنية ، و « محمد ندى » في النبات والحيوان
 والحيولوجية والطبيعة ، والصيدلى « على رياض » في الصيدلة والسموم ،
 و « محمد الدرى » في الجراحة وفي الأمراض الوبائية ، و « سالم سالم »
 في الطب الباطنى . و « محمود الفلكى » في التقاويم والمقاييس والفلك ،
 و « محمد بيومى » في الحساب والجبر والمثلثات والهندسة الوصفية

وشارك علماء اللغة في هذه النهضة العلمية ، فكان منهم خبراء متخصصون
 في تحرير الكتب العلمية وتصحيحها ، منهم « محمد عمر التونسي » مؤلف
 (معجم الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية) و « إبراهيم الدسوقي » الخبير
 بمصطلحات العلوم الرياضية ، و « رفاعه رافع الطهطاوى ، وأحمد فارس
 الشدياق ، والمعلم بطرس البستاني » في ألفاظ الحضارة والفنون ^(١) .

وكان تراث هذا الجيل من العلماء المصريين ، بين أيدي المستشرقين العلماء
 الذين وفدوا على الشام في النصف الثاني من القرن الماضي ، وشاركوا في هذه
 النهضة العلمية بتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها باللغة العربية .

وقد اشتهر منهم « الدكتور كرنيليوس فانديك » الذى درس في بيروت
 بالعربية ، الكيمياء والحيويات وعلم الأمراض . وعرفت مؤلفاته العربية :
 الباثولوجية في مبادئ الطب البشرى ، والنقش في الحجر ، في تسع مجلدات
 صغيرة ، كل مجلد منها موجز في علم من العلوم الحديثة ، كالكيمياء والطبيعة
 والنبات والحيولوجية والفلك والجغرافية الطبيعية . وله كتب عربية أخرى

(١) من مراجع هذا الموضوع :

(تقويم النيل) و (التعليم في مصر) لأمين سائى : ط القاهرة .

(تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر) لأحمد تيمور ١٩٤٠ .

(المصطلحات العلمية في اللغة العربية) للأستاذ مصطفى الشهابى : معهد الدراسات العربية ١٩٥٥ .

(تاريخ التعليم في مصر) للدكتور أحمد عزت عبد الكريم - القاهرة ١٩٤٥ .

في الرياضيات ، وأصول الجبر ، والأصول الهندسية . وأصول علم الهيئة ،
ومحاسن القبة الزرقاء في الفلك . . .

و « الدكتور جورج بوست » قام بتدريس الجراحة والمواد الطبية والنبات
باللغة العربية . ومن مؤلفاته فيها : المصباح الوضاح في صناعة الجراح ،
والأقرباذين والمواد الطبية ، ومبادئ التشريح والصحة والفسولوجية ، وكتاب
من جزأين في مبادئ علم النبات . وقد ألف معجماً قيماً باللغة الإنجليزية في
(نبات سورية وفلسطين والقطر المصري وبواديها) ذيله بفهرس للأسماء العربية ،
فصحى أو عامية ، لمصطلحات المعجم ، عددها نحو ألف وخمسمائة اسم .
و « الدكتور يوحنا ورتبات » علّم الطب في كلية بيروت ، باللغة العربية ،
وألف بها كتب التشريح ، والفسولوجية ، وحفظ الصحة . ورسائل عديدة
في مسائل طبية ^(١) .

• • •

إلى هنا تنهى خلاصة المعروف من تاريخنا العلمى ، قبل أن تتسلل
إلى أفقنا دعوى عقم العربية وعجزها . .

أما ما بعد ذلك ، فيشبه أن يكون قصة محيرة يشق على الدارس منا أن
يميز خيوطها المتشابكة في نسج معقد أشد التعقيد !

من أين بدأت هذه الدعوى ؟

وكيف سارت ؟ وإلى أين انتهت ؟

من العسير أن نستوعب القصة في أقطار الوطن العربى ، وقد أكتفى
في هذا المجال المحدود ، بتتبع فصولها في مصر التى كانت مركزاً للغزو
الفكرى بالشرق . بحكم دورها القيادى في فجر اليقظة العربية ، وإن تكن
القصة قد تكررت بصورة أو بأخرى في سائر أقطار الوطن العربى .

(١) الأستاذ مصطفى الشهابى . . المصطلحات العلمية في اللغة العربية ص ٤٢ ط المهد .

مع بدء نكبتنا بالاحتلال ، عُرِزَت اللغة العربية عزلاً تاماً عن تدريس العلوم الحديثة التي فرض المستعمر دراستها بلغته . وسائر هذا الانقلاب ترويض لفكرة عجز العربية عن تدريس أى علم حديث ، وإنما حسب أن تبقى في الكتابيب والمعاهد الدينية والمدارس الأولية المحجوبة تماماً عن الثقافة العلمية الحديثة .

ثم ما لبثت الفكرة أن تجاوزت مجالها المحدود ، في القول بعجز العربية عن العلم الحديث ، إلى دعوى تعلن أن تخلفنا العلمى والقوى والحضارى في عصور الانحطاط ، إنما يرجع إلى تشبثنا بلغة بدوية من أحافير عصر الناقة ، لا تصلح لغير حذاء الإبل والوقوف على الأطلال ، ومحكوم علينا أن نظل نعيش بعقالية الريفيين والبدو في مجتمع الزراعة والرعى ، إذا لم نهجر هذه اللغة العتيقة إلى لغة عصرية حية .

وقد اختلطت الدعوى في بعض مراحلها الأولى بالدعوة إلى اللغة العامية . فالدكتور « سينا » كان يرى لنا أن نهجر الفصحى السائرة إلى الموت . إلى اللغة العامية على أن نكتبها بحروف لاتينية .

لكن الحملة على الفصحى سارت بعده في طريقين : أحدهما يدعو إلى العامية وقد مضى القول فيه ، والآخر يدعو إلى لغة أجنبية حية بديلاً للعربية المحتضرة ، وهو ما يتصل بمشكلة لغتنا والعلوم الحديثة .

• • •

مع بواذر الثورة العراقية ، رَوَّج عدد من المثقفين العرب فكرة استبدال لغة أجنبية بلغتنا العربية ، وإذ كان قادة الأمة قد وجدوا في العامية وسيلة إلى التعبئة الثورية للوعى الشعبى ، فلمهم لم يجدوا في الدعوة إلى لغة أجنبية سوى مسخ لشخصية الأمة وقضاء عليها .

وبدأ « عبد الله النديم » من العدد الأول من (التنكيث والتبكيث) حملته على دعاة اللغة الأجنبية ، بحوار ساخر بين ابن البلد وبين « عربى تفرنج » ثم كتب في العدد الثانى مقالا عنوانه " إضاعة اللغة تسلم للذات " سأل فيه

الناطق بالضاد ، بم يستعيز عن لغته وما لها من شيل ؟ أعن جهل بتاريخ لغتنا وأسرارها وتراثها وحيويتها ؟ أم عن افتتان بحسن في لغة أجنبية حديثة ليس في لغتنا ؟ ثم استطرد يقول : « إن اللغة سر الحياة ، والحد الفارق بين الإنسان والبهيم . . . فهي أنت إن كنت لا تدرى من أنت . وهي وطنك إن لم تعرف ما الوطن . أما كونها أنت فلأنك بها تعرف أهلك ، وأنت إذا فقدتهم صرت وحيداً غريباً في الوجود لا يقول لك قائل من أنت ، وأما كونها وطنك فإنه إنما يعمر ويسمى وطناً بأبنائه ، ومن فقد المواطن فقد الوطن .

« أسمعك تقول : إذا فقدت لغتي اعتضتُ عنها بأخرى . اعتضتَ ولكن بما أضاع منك الوطنية والمعتقدات الدينية . . . فتبّيت وأنت وطني حر ، و تصبح وأنت في يد أجنبي . بصرفك كيف يشاء . . . لأن إضاعة اللغة تسليم للذات » .

وهنا تقدم « الأستاذ أمين شميل » فدخل ميدان المعركة بكل وزنه الثقافي ومكانته الأدبية ، فلم يكتف بأن نستعير لغة أجنبية لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها ، بل نادى بأن نتخلي عن العربية ، فصحي أو عامية ، إلى لغة أجنبية تحيينا علمياً وثقافياً واقتصادياً . وأكد عقم كل محاولة تبذل لإحياء لغتنا العربية المقضى عليها حتماً بالموت !

وكانت وجهة نظره :

— أن اللغة أداة للتعبير . والمرء لا يقيد بلغة خاصة إذا ما استطاع أن يصل إلى الهدف وهو التعبير عن نفسه . وإذا كانت اللغة العربية ليست أداة صالحة للتعبير لضعفها وضعف أهلها ، فلا لوم عليه إذا تركها إلى غيرها من اللغات الأجنبية لأن الإنسان مفطور على طلب التقدم .

— أن اللغة العربية سائرة حتماً إلى الموت كما ماتت لغات من قبلها كانت لها خصائص ومميزات مثل اللغة العربية . ومع ذلك لم تستطع أن تغلب على الموت . فبأى شيء نستبقى العربية ونغري بالتمسك بها : بحسن كلام أم بلطافة

لفظ أم بكثرة مواد لغوية وفصاحة عبارة ؟ أليس ذلك كله كان كثيراً في لغات ماتت كال يونانية والسريانية والكلدانية والقبطية ، دون أن يقيها من الموت شئ ؟

— أن إحياء اللغة العربية بعد موتها أمر معجز عسير غير مأمون العواقب فضلاً على كونه غير مجد ، من الناحيتين المادية والعلمية على السواء . وأننى لنا أن نكون خيراً من أصحاب تلك اللغات الميتة ، ولنا سوى بشر من صفاتهم العجز ، ونخلفنا مهام هذه الحياة تشغلنا بطلب الرزق ؟

« وهل الاشتغال بإحياء ما قضت الحياة بموته يؤتينا خبزاً ؟ اذهب إلى دوائر أحكامنا ومراكز تجارنا ، وانظر بكم يؤجر الكاتب الضادى والكاتب الدالى ، ثم ألق لك كتاباً واجعله كله ضاداً ، واصرف فيه عمره وعرضه على قومك ، فترى ما لبضاعتك من رواج .

« أما اللذة العقلية التى أحصلها من درس لغتى لأفهم كتب علمائها الجليلة وأملأ صدرى من فرائد أقوالهم البديعة ، فإنك تعلم أولاً أن كل لذات علوم الدنيا لا تملأ بطن جائع ، ولا لذة عقلية لمن لا يحسن غذاء جسده . وقد نسبت ثانياً ، أن مؤلفاتنا التى نفتخر بها — يعنى ذخائر تراثنا — قد نهبت لفظاً ومعنى إلى مراكز الأمم النامية — يعنى : الراقية المتقدمة — فزادوا عليها أموراً كثيرة ، فهى حية فى تلك الأمم ميتة عندك ، لأسباب منها : عدم صحة النسخ فكتبنا كلها أغلاط . ومنها عدم وجود من يفهمها الآن وقد مات من كان يعرف معانيها ، ومنها أن كثيراً قد نُسخ بما أظهرته التجارب وقام غيره مقامه . ومنها الزيادات الجوهرية التى حدثت بعدهم ويجب معرفتها مما لا وجود له فى الكتب ؛ ومنها عدم وجودها كلها إذ لم يبق منها إلا الطفيف .

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاًها وحتى سامها كل منفسٍ

وهذا الهزال الباقي إذا كنت سعيداً وعثرت عليه ، تلتزم بدفع عنه

مالا جزيلا ، ومن أين لك المال يا أخى وأنت تتجر بيضائع أكلتها العثُ
وبدلتها الموضة ؟

— أن من أراد كسباً مادياً وعلمياً فليختر لغة غير العربية « أية لغة
أجنبية إن كتبتَ بها راجت كتابتك ، وإن طلبت تحصيل علم فيها وجدت
كتباً لا تحصى فى غاية الضبط والكمال وامتلاأت بها خزائنك . منها كتب
أجدادك قد تصفحها أصدادك ونقحوها وشرحوها وزادوا فيها ، ويسروها لك
بشمن أرخص من الفجل . فإذا اشتبه عليك معناها وجدت أروفاً يكشفون لك
غوامضها ويحلون لك عقدها . نعم إن فى لغة الطفولية لذة ووطنية ، إلا أن
الوطنية الحقة ، ودعنا من الكلام الفارغ ، قائمة فى المعانى لا فى الألفاظ
أعنى فى صيانة حقوق الأفراد وإحكام العدل والتسوية والالتفات إلى الأمة
ولغتها وعدم إعطاء خبز بنينا لغيرهم ، فإذا فعلت هيتتنا ذلك هان علينا كل
شئ ، وإلا فأنت تضرب فى حديد بارد ، وكانت الوطنية قولهم : ضرب
زيد عمراً ، واشتعل الرأس شيباً » .

وقد نشر النديم مقال أمين شمبل بعنوان "كلمة غيور على لغته" فى
العدد الخامس من (التبكيك والتنكيك : ١٠ / ٧ / ١٨٨١) .

ثم بدأ الرد عليه ، فرأى أن يفرغ أولاً من بيان حقيقة أن إضاعة اللغة
تسليم للذات ، واستغرق الشرح مقالا مطولا فى العدد الثالث عشر من
التنكيك (١٨٨١/١١) حيث أوضح أن من يتخلون عن لغتهم يفقدون
الجنسية رأساً ويتجنسون باللغة الطارئة ، « فإذا كانت أمة مستقلة وغيرت
لغتها بغيرها ، ضعف فيها الاستقلال بقدر ما يضعف من لغتها ، فإذا تم التغيير
فقدت الاستقلال ووقع فيها الخذلان » .

لكن أحداث الثورة العراقية لفتت فى دوائها ، حتى إذا عاد إلى الظهور
بعد أن اختفى تسع سنين ، كان الاحتلال الإنجليزي قد تسلط على مرافق البلاد
الحوية ، وعزل اللغة العربية عن المجال التعليمى والعلمى ، وفرض اللغة
الإنجليزية لغة التعام .

وإذ كانت السلطة حين رخصت للتدريج في إصدار صحيفة « الأستاذ » قد حرمت عليه الاشتغال بالسياسة ، جعل منها التدريج مجالا للدفاع عن لغة الأمة ولسان قوميتها ، وحشد طاقته للجهاد في معركة الغزو اللغوي الذي كان ذريعة لترسيخ الاستعباد السياسي والقضاء على الأمة .

وبدأ نضاله من حيث انتهى به القول في إضاعة اللغة تسليم للذات ؟ عام ١٨٨١ م ، فاستأنف رده على المقال الذي كتبه أمين شميل قبل نحو أحد عشر عاماً . فلم يلزمه على ترك اللغة العربية وليست لغة الإنجيل كتاب دينه ، ولكن ماذا عن القرآن ؟

ورد على المقارنة بين فقر الكاتب الضادى وهوانه لدى الحكام وأصحاب العمل ، مع غنى الكاتب الدالي وقيمته ، « بأن الأمة ليست كلها في دوائر الحكومة ولا متجرة مع أوروبا . وإنما ألبأ بعض الأمة إلى تعلم اللغات الأجنبية سوءً تصرف بعض الحكام ، فبدل أن يتكلف الأوروبي المنتقل إلى بلادنا اتجاراً واستيطاناً تعلم لغتنا ، ليعاملنا أو يخاطبنا بها ، علموا هم بعض الأمة ليعتمد الأوروبي ويساعده على تفوذه باتساع نطاق لغته فينا . فحق لهذا الفاضل — الأستاذ شميل — أن يبكت الذين أحيوا لغة الأجانب بإماتة لغة البلاد . ولكن لو فرض وتعلمنا اللغات الأجنبية وتكلمنا بها عند الحاجة إليها ، لوجب أن نحافظ على لغتنا لبقاء الدين والجنس ببقائها » .

وحديث « شميل » عن ذخائر تراثنا التي رأى أن يلتصقها من شاء منا لدى الأجانب التي نههوها وفهموها وشرحوها ويسروها للقراء ، ردَّ عليه التدريج بأن في كلامه إقراراً بأن الإنجليزي أو الفرنسي ، لم يفهمها إلا بعد أن تعلم لغتنا وأتقن معرفة قواعدها ، وإلا استحال عليه أن ينطق بالكلمات العربية من مخارجها فضلاً عن فهم معناها ، « فإذا كان الأجنبي يتعلم لغتنا لينقل ما فيها إلى لغته ، أفلا نتعلمها للمحافظة على ما عندنا ؟ وإذا كان الأجنبي يقدر على فهم معاني لغتنا وهي أجنبية عنه ، أفلا نقدر على فهم مؤلفات علمائنا ونحن من عشيرتهم ؟ وأما تعليقه بالأغلاط — في كتب تراثنا — فأظنه من باب

التنكيت فإن الذين تمدح بهم من الإفرنج ما أخذوا تلك العلوم إلا من هذه الكتب ، فيلزم أن تكون علومهم فاسدة لأنها مأخوذة عن أغاليط لا صواب فيها ! فإن قيل إنهم صححوها وهى بغير لغتهم ، قلنا : أفلا يقدر أصحاب اللغة على تصحيح كتبهم وهم أدرى بها من غيرهم ؟ وأما قوله : قد مات من كان يفهم معانيها ، فإنه منقوض بنفس القائل ، فإنه أحد من يتكلمون باللغة العربية وله اقتدار على فهم معاني تلك المؤلفات والأخذ منها والنقل عنها ، كما فعل فى مؤلفاته العربية ^(١) مع كونه غير مشغول بجميع العلوم العربية ، فالعلماء القائمون بتعلم تلك العلوم ودراستها يعرفونها حتى المعرفة ، ولم على كل كتاب شروح وحواشٍ ، تشهد بذلك الكتب التى ألفت من القرن الأول الإسلامى إلى الآن . على أن العلوم التى أهتمت فى الشرق كالطب والهندسة والجغرافية وغيرها واستعملت فى الغرب ، قد ترجمها الشرقيون إلى لغتهم وقرأوها فى مدارسهم . فهذه المدارس المصرية قرئت فيها العلوم القديمة والمترجمة ، ولم يفهموا شىء مما كتب فى أوربا ، ولم تتغير كيفية التدريس من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية أو الإنجليزية إلا فى هذه السنة ، وهى نشأة مؤقتة لا تمكث إلا بقليل ما يطالب المصريون بحياة لغتهم التى يصرفون أموالهم على المدارس التى هى فيها ، ولا يعارضهم فى ذلك معارض ، فإن الأجنبى لم ينفق على المدارس درهماً ولا ديناراً حتى يحتم علينا لغته التى لا حاجة لنا بها فى التدريس »

(الاستاذ : ٢٠ - ٣ / ٦ / ١٨٩٣)

• • •

وهذا الحوار بين التديم وشميل ، يكتفى هنا لإعطاء فكرة عن أبعاد المعركة وأسلحة الفريقين فيها ، لكى نتابع قضية العربية والعلوم الحديثة

(١) ألف الأستاذ أمين شميل فى القانون والسياسة والأدب . ومن مؤلفاته : (الوفاء) فى تاريخ المسألة الشرقية ، والمبتكر فى الأدب (٥ مقامات + ٢٥ قصيدة) ونظام الحكومة الإنجليزية ، والدرة الجلييلة فى المباحث القضائية .

فقرى أنه بقدر ما رفض الضمير القومى التخلّى عن لغة الأمة ، عجز عن التصدى لقرض العربية على المجال العلمى ، وقد عزّلت تماماً عن هذا المجال ، حتى اعترف الوطنيون أنفسهم بقصورها عن أداء العلوم الحديثة ما لم تُبذل جهود مغلصة لعلاج هذا القصور .

ويمكن القول إن الشعور بمحنة العربية ، بدأ منذ أغلقت المعاهد العلمية ومدرسة الألسن في عصر سعيد ، ففي عام ١٨٦٠ دعا « أحمد فارس الشدياق » في (مجلة الجوائب) إلى أن تتأزر جهود المشايخ والعلماء ، لتعريب المصطلحات في العلوم والفنون التي لم يكن لسلفهم معرفة بها . وحتمل الدعوة من بعده « عبد الله فكرى » في (الآثار الفكرية) عام ١٨٧٦ ، ثم تولاهما النديم في (الأستاذ) من عام ١٨٩٢ لافتاً إلى واجب القائمين بالأمر فينا « في أن يحولوا بين اللغة وموتها بإحداث جمعية من مشايخ الأزهر وأفاضل العلماء العارفين باللغات الأجنبية ، ليضعوا للاصطلاحات الطبية والكيمياوية والهندسية ومفردات الكلام ، أسماء عربية تدرس بها تلك العلوم » .

ووجدت الدعوة استجابة عملية ، ففي أوائل عام ١٨٩٣ اجتمع في دار السيد محمد توفيق البكرى عدد من علماء العصر وكتابه ، لدراسة مشروع المجمع ، وهم المشايخ : الشنقيطى . ومحمد عبده ، وحمزة فتح الله ، وحسن الطويل ، والسادة : حنفى ناصف . ومحمد بيرم ، ومحمد المويلحى ، ومحمد عثمان جلال ، ومحمد كمال .

ووضعوا لائحة للمجمع ، وانتخبوا السيد البكرى لرياسته . ومحمد بيرم لأعمال السكرتارية . وعقدوا سبع جلسات ناقشوا فيها عدداً من المصطلحات العلمية . وكان تاريخ آخر الجلسات يوم ١٧/٢/١٨٩٣ .

وفي العام نفسه ، ظهرت (مجلة المهندس) فقدمت تجربة عملية لكتابة البحوث العلمية باللغة الصفحى ، تحدياً (لمجلة الأزهر) ودحضاً لدعوى من قالوا بعجز العربية عن أداء العلوم الحديثة . وقد تولى « المهندس أحمد كامل »

تحرير القسم الهندسى والرياضى ، و « الدكتور مهدي » تحرير القسم الطبى ،
و « حسن بك حسنى » تحرير القسم الفلسفى .

• • •

وشهدت مرحلة اليقظة ، حركة تطور فى أساليب العربية ونهوض باللغة
استوعبها « الأستاذ محمد خلف الله » فى كتاب (معالم التطور الحديث فى
اللغة العربية وآدابها - ج ١ القاهرة ١٩٦١) .

ثم شهد النصف الأول من هذا القرن ، عدداً من علمائنا ، عكفوا
فى إخلاص باذل على وضع معاجم للعلوم ، من أشهرها معجم الدكتور
محمد شرف ، بالإنجليزية والعربية ، فى العلوم الطبية والكيمياء والطبيعية والمواليد
والنبات . ومعجم الحيوان والمعجم الفلكى للدكتور أمين المعلوف ، بالإنجليزية
والعربية أيضاً . ومعجم أسماء النبات للدكتور أحمد عيسى ، بالعربية والفرنسية ،
ومعجم الألفاظ الزراعية للأمير مصطفى الشهابى ، بالعربية والفرنسية . ونشرت
مجلات المرحلة - كمجلة المجمع العلمى بدمشق ، ومجلة لغة العرب ببغداد ،
ومجلة المقتطف بمصر - بحثاً علمية واتسعت لكثير من المصطلحات العربية أو
المعربة . واشتغل عدد من أعلام العصر بتحقيقات لغوية للألفاظ العلمية ،
منهم الأستاذ : أحمد تيمور وأحمد زكى فى بحثهما فى ألفاظ الحضارة وأسماء
البلدان ، والسيد عبد الحميد البكرى فى تحقيقه لألفاظ الفلك . ونشر الدكتور
مأمون الحموى بحثاً فى المصطلحات الدبلوماسية (دمشق ١٩٤٩) والدكتور
عدنان الخطيب فى لغة القانون (دمشق ١٩٥٢) والدكتور بشر فارس فى
مصطلحات فن التصوير (مصر ١٩٤٥) .

وشارك العلماء المستشرقون فى هذه الحركة ، منهم الأستاذ جريفل
فى (الحيوانات البحرية والنهرية فى سورية ولبنان) والدكتور ماير هوف
فى تحقيق أسماء نباتات طبية ، وشرح أسماء العقار لابن ميمون الأندلسى .
لغتنا والحياة

والدكتور رينو والأستاذ كولن ، في شرحهما لمخطوط عربي مجهول المؤلف . عنوانه (تحفة الأحباب في ماهية النبات والأعشاب) .

وتألفت بلخان في مصر ، وسورية والعراق ، لوضع مصورات جغرافية بأسماء عربية صحيحة ، وتعريب المصطلحات العسكرية . وتألفت المجامع الرسمية لتدعيم هذه الحركة ورعايتها : فتأسس المجمع العلمي بدمشق عام ١٩١٩ ، والمجمع اللغوي بالقاهرة عام ١٩٣٢ ، ثم المجمع العلمي ببغداد عام ١٩٤٧^(١) .

• • •

ولكن هذه الجهود المبذولة على طول نصف قرن ، لم تستطع أن تعيد اللغة العربية إلى مجاها الحيوى في الدراسة العلمية ، بل لم تستطع كذلك أن تحسم الجدل القديم حول صلاحيتها لتدريس العلوم الحديثة والتأليف فيها . وقد خلا ميدان المعركة من الأجانب بعد أن خرج منه ويلكوكس وويامور ، ودخله الأستاذ سلامة موسى ، فردد القول بمسؤولية اللغة العربية عن تخلفنا العلمى إلى جانب مسؤولياتها عن تخلفنا الحضارى والاقتصادى والاجتماعى ، وعن الجريمة والجنون .

وكان الأستاذ واعياً لكل ما يشكو المصلحون الوطنيون من رواسب عصور التخلف والانحطاط ، في المجتمع وفي اللغة ، حريصاً على تتبع ما يقترحون من علاج لمشكلات حياتنا اللغوية . وقد أخذ من هذا كله ، ما يؤيد به حملته على هذه اللغة المسئولة عن كل أمراضنا !

واشتدت حملته على " الأحافير اللغوية " وسخريته بالزهو المضحك لمن يعتقد أن لغتنا تستطيع أن تجتاز نفسها . وهذا الاعتقاد من أكبر الأسباب للفاقة الثقافية التى نعانينا فى وقتنا : « لأن هذه اللغة لا ترضى مثقفاً فى العصر الحاضر ، إذ هى لا تستخدم الأمة ولا ترقىها ، لأنها تعجز عن نقل مائة

(١) لمزيد تفصيل عن جهود العلماء والمخترعين فى هذا المجال ، اقرأ كتاب الأستاذ مصطفى الشهابى (المصطلحات العلمية فى اللغة العربية) ط المعهد ١٩٥٥ .

من العلوم التي تصوغ المستقبل « (١) .

واضطرب بين الدعوة إلى العامة ، وبين دعوته إلى لغة علمية ، ليست لغة القرآن وتقاليد العرب البالية ، مع الإلحاح في النصيح لنا باستعمال الحروف اللاتينية .

وقد مضى القول في العامة ، ونعرض هنا للغة العلمية ، من حيث اتصالها بموضوع هذه المحاضرة ، فراه يتصور أننا سوف نتطور من العقلية الزراعية البدوية ، إذا اشتغلنا بتأليف الكتب في أقطاب الصناعة في عصرنا ، بدلا من التأليف في أعلام تاريخنا .

ويلقى هذا السؤال :

« نحن نحاول أن نرق بأمتنا ، ولكن ما معنى الرق ؟ »

ثم يجيب : « هذا الرق يعنى أننا نعيش المعيشة العلمية حيث تستند الحقائق إلى البيانات لا إلى العقائد . . . فيجب لهذا السبب أن تكون لغتنا علمية وثقافتنا كوكبية وكتابتنا لاتينية » .

أما اللغة العلمية ، فتعنى عنده « أن كتب المطالعة في المدرسة والبيت يجب أن تتناول موضوعات البيولوجية والاجتماع والتراجم والكيمياء والفلكيات والاقتصاد والصناعة ، بدلا من مقطوعات أدبية من كتب العرب قبل ألف أو خمسمائة سنة » - ٩٦

كما تعنى أن نكف عن الأساليب الأدبية ، لنكتب بلغة الأرقام واللغة العصرية .

وهذه نماذج من مشتقاته من هذه اللغة العلمية :

من الطب : اللغة هي الجهاز العصبي للمجتمع .

- خرف الغارات قد نفذ إلى جميع مسام المجتمع .

- يمشى في تناقل روماترى .

(١) البلاغة العصرية - ص ٢٣ ط العصرية بالفجالة .

... الوقف كالحفرة في الدورة الاقتصادية المصرية .

— يعانى تخمة ذهنية .

من الكيمياء : كائن مذهب التطور من أعظم الحمائر الاجتماعية .

ومن الطبيعة : الاستقلال هو بؤرة الاشتعال الوطنى .

— من الحركات المغنطيسية التى تجذب الشبان ..

— الطاقة المطورية فى الكلمات .

ومن الميكانيكا : يرى المصباح الأحمر أينما سار .

— الحرب هى قاطرة التاريخ لأنها تعجل التطور .

ومن الموسيقى : الحياة تفقد إيقاعها فى المرض .

ومن السيكلوجية : تجمعت الفكرة عندى .

ولست أدرى ما قيمة هذه العبارات الركيكة التى ساقها فى باب " اللغة
العصرية — ص ٧٥ " ونحن السلفيين سدنة لغة القرآن ، تجرى أقلامنا بأساليب
بيانية من مثل قولنا : نبض المجتمع ، وحس العربية ، وغشية الدوار ، وأخذة
المفاجأة ، واتزان الرأى ، وسراب الوهم ، والمناخ الفكرى للعصر ، وفلك القصور
وقطب الجماعة ، ومحور الموضوع ، وإعصار التثار ، وتيارات الغزو ، وكثافة
الحس ، وشلل الحركة ، وعمق الوجدان ...

دون أن تشفع لنا هذه « اللغة العلمية » لدى من ينكرون علينا سلفيتنا
اللغوية ، بل ما نزال فى رأيهم نعيش بعقلية بدوية زراعية ، ولم تفلح هذه
الأساليب فى نقلنا إلى مناخ العصر !

وليسوا بحبث يدرون أن لغة القرآن التى زعموا أنها تنأى بنا عن روح
عصرنا ، حافلة بروائع من آيات البيان الأعلى ، تستخدم ما يسمونه اللغة
العلمية ، على نحو يتضاءل دونه كل ما حشدوا ويحشدون من عباراتهم
العصرية الهابطة . كمثل آيات :

«وَأَيُّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» - محمد : ٢٠

«أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ» - محمد : ٢٣ .
 «أَعْمَاهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ» إبراهيم : ١٨ .
 «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَحِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ » .
 النور : ٤٠

«يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ»
 النور : ٤٣
 «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا»
 النور : ٣٩

«... يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ . قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ» .
 يوسف : ٤٣

«أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . صُمُّ بَكْمٌ عَمَىٰ فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ . أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ . يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا . . .»
 البقرة : ١٨

• • •

فأين من هذه الآيات المحكمات ، نجرثُهم الفكرة وقاطرة التاريخ والخبرة في الدورة الاقتصادية ، والطاقة الموطرية في الكلمات ؟ ما أرى الأستاذ سلامة موسى ، قدم حلاً لأزمة العربية واللغة العلمية ، وهو لم يلبث أن ترك هذه العبارات العصرية ليدعو إلى «الخط اللاتيني» الذي انتهت إليه آماله

في رقي الأمة وتطورها وإصلاح المجتمع ، وحامت حوله أحلامه في عالم سعيد أو « يوتوبيا الضائعة » .

وقد انتظر بدعوته حتى ظهر الأستاذ عبد العزيز فهمي باقتراحه في العدول عن الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية قصداً إلى التيسير في ضبط الكتابة وتحديد حركات الحروف بما يغني عن ضبطها بالشكل . فتلقف الكاتب المصلح « الأستاذ سلامة موسى » هذا الاقتراح وقال :

« هذا السخط الذي يتولانا كلما فكرنا في حالنا الثقافية وتعطيل هذه اللغة لنا عن الرقي الثقافي ، تزيد حدته كلما فكرنا وأدى بنا التفكير إلى اليقين بأن إصلاحها مستطاع . والقلق عام ولكن الجبن عن الابتكار أعم . ولذلك قلما نجد الشجاعة للدعوة إلى الإصلاح الجريء إلا في رجال نابهن لا يبالون بالجهلة والحمقى ، مثل قاسم أمين أو أحمد أمين في الدعوة إلى إلغاء الإعراب ، أو مثل عبد العزيز فهمي حين يدعو إلى الخط اللاتيني ، والواقع أن اقتراح الخط اللاتيني هو وثبة المستقبل لو أننا عملنا به لاستطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا (! ؟) التي أغلق عليها هذا الخط أبواب ماضيها وفتح لها أبواب مستقبلها .

« وهذا الاقتراح يحتاج أولاً إلى إلغاء الإعراب . وميزاته :

أولاً : الاقتراب من التوحيد البشري لأنه وسيلة القراءة والكتابة عند المتمدنين الذين يملكون الصناعة ، أي العلم والقوة والمستقبل . وهذا الخط تأخذ به الأمم التي ترغب في التجدد كما فعلت تركيا . ومن المرجح أن يعم هذا الخط العالم كله قريباً .

وثانياً : حين نصطنع الخط اللاتيني ، يزول هذا الانفصال النفسي الذي أحدثته هاتان الكلمتان المشثومتان شرق وغرب ، فلا نتعير من أن نعيش العيشة العصرية . ولا بد أن يمر هذا الخط في أثره كثيراً من ضروب الإصلاح الأخرى مثل المساواة الاقتصادية بين الجنسين ، ومثل التفكير العلمي والعقلية بل النفسية العلمية أيضاً . إلخ .

وثالثاً ورابعاً وخامساً . . .

وسادساً : أننا عندما نكتب بالخط اللاتيني نجد أن تعلم اللغات الأوروبية قد سهل أيضاً ، فنتفتح لنا آفاق هي الآن مغلقة .

وبالحيلة نستطيع أن نقول إن الخط اللاتيني هو وثبة في النور نحو المستقبل ، ولكن هل العناصر التي تنتفع ببقاء الخط العربي والتقاليد ترضى بهذه الوثبة ؟ ^(١)

• • •

فهل الأمر حقيقة يمثل هذه البساطة ؟

وهل استطاعت تركيا - القدوة والمثال - أن تبلغ بحروفها اللاتينية من التقدم الصناعي والرق العلمي ما لم تبلغه اليابان أو الصين الشعبية ، بلغاتها الشرقية الآسيوية العتيقة ؟

أو هل استطاعت غانا ، والإنجليزية لغتها الرسمية والثقافية ، أن تملك من العلم والقوة والمستقبل مالا تملكه مصر أو المغرب مثلاً ؟

أو هل خرج السودان الجنوبي ، ولغته الإنجليزية ، من الشعوب المتخلفة إلى الدول المتقدمة ، وتحرر من الكلمتين المشؤمتين : شرق وغرب ، فاستطاع أن يعيش المعيشة العصرية وضمن تحقيق المساواة الاجتماعية والاقتصادية بين الجنسين والتفكير العلمي والنفسية العلمية ، وانفتحت أمامه آفاق موصدة في وجه السودان الشامي بحكم لغته العربية التي يحجب عن التخلي عنها ، رجال تعوزهم الجرأة والنباهة كيلا يبالوا بالجهلة والحمقى ؟

ولكن هذه الدعاوى العريضة التي لا تثبت لنظر أو منطق أو واقع ، وجدت من يؤمنون بها من مثقفينا السائرين غرباً ، « لأن هذه اللغة العربية لا ترضى مثقفاً في العصر الحاضر إذ هي لا تخدم الأمة ولا ترقها ، لأنها تعجز عن نقل نحو مائة علم من العلوم التي تصوغ المستقبل وتكيفه » كما أكد

سلامة موسى في كتابه (البلاغة العصرية واللغة العربية) .

بل أخشى أن أقول إنها ساعدت على ترسيخ الفكرة العامة عن عجز لغتنا عن مسايرة التقدم العلمى ونقل علوم العصر . .
ومن هنا كان الخطر . .

فالأمة حين نحس هجوماً على عناصر ذاتها ومقومات أصالتها ووجودها من أجنبي غريب عنها مهما يكن زيه أو قناعه ، تتحفظ لاتقاء الخطر في مواجهة عدو سافر . فتأخذ كلامه بمنتهى الحرص والحذر ، وقد يصل موقفها منه إلى حد الرفض والتحدى .

أما حين تنتقل السهام إلى أيدي نفر من أبنائها . فإن الخطر يأتي من حيث لا تتوقع . ودون أن تتأهب لاتقائه بشيء من التوجس والحذر والارتباب . وما يكتبه الأجانب عن عقم العربية ، قلما يصل إلى مجال التأثير العام ، بحكم عزلة الجماهير ونفورها من الأجنبي ، وإنما يصل إليهم عن طريق المثقفين الذين ينتمون فكرياً إلى الغرب . وهم عادة يتفدون إلى المجال الثقافي بدعوات إصلاحية تقدمية . ثم لا يلبثون أن يكتشفوا في تشخيصهم لأمراض المجتمع . أن لغتنا العربية هي علة العلل وأصل الداء . والقيد الباهظ الذى يشل خطانا نحو التقدم ، والسد الأصم الذى يحجز بيننا وبين آفاق العصر !

ويمضى وقت غير قصير قبل أن يتصدى الوعى القومى لمواجهة الخطر ، لكن بعد أى يحدث الضجيج أثره في المناخ الفكرى للأمة ، بحيث تحتاج إلى جهد شاق يستغرق أمداً لكى تسرد اتران خطاها وصفاء أفتها .

وفي قضية " العربية والعلوم الحديثة " كانت دعوى عجز هذه اللغة وعقمها من « سبيتا وويلكركس وويلمور » وغيرهم من الأجانب الغرباء ، بحيث تذهب مع الريح ، لولم تجذب إليها عدداً من كتابنا ذوى الثقافة العصرية ، ممن كتبوا في التقدمية والتطور والاشتراكية .

وعن طريقهم . أخذت مجراها في حياتنا القومية . وكان ربط تخلفنا

العلمي والثقافي والاجتماعي والحضاري بيدادة العرب وجمودها ، هو الذي مكّن للدعوى من مناطق التأثير ، فصدق بها من صدق عن جهل أو غفلة وتغيب المثقفون العرب الأصلاء من أمر لغتهم التي عرفوا تاريخها العلمي .

وكان رأى الكثرة من علمائنا ، أن العلوم الحديثة تقدمت أشواطاً بعيدة المدى عن العهد بها أيام آبائنا الأقربين ، فضلاً عن جيل اليقظة في القرن الماضي الذي عرّب علوم زمنه .

وعلى امتداد نصف قرن أو أكثر ، شهدت حياتنا اللغوية ما أشرنا إليه من جهود فردية سخية لوضع المصطلحات العلمية في اللغة العربية ، إلى جانب ما قامت به الهيئات العلمية من جهود في هذا الميدان .
وتمضى عشرات السنين . .

وما تزال بلجان المصطلحات العلمية ، حتى يومنا هذا ، تتابع عقد جلساتها ومؤتمراتها ، وتثبت في تقاريرها أو مجلاتها ، ما يستقر عليه الرأي من مصطلحات علمية . وما يزال مركز تنسيق التعريب في الرباط ، يوالى إرسال رسائله إلى علماء الوطن العربي يستفتيهم في مشكلات تعريب العلوم .

وما يزال عدد من علمائنا وعلماء الاستشراق ، يتابعون نشر كتب علمية من ذخائر تراثنا ، قد يكفي أن أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :
« مختارات من رسائل جابر بن حيان ، ت ١٩٨ هـ » .

تحقيق د. بول كراوس — ط الخانجي بالقاهرة ١٩٣٥

« المختصر في حساب الجبر والمقابلة للخوارزمي . ت ٢٣٦ هـ »

د. علي مشرفة ، ود. محمد مرسى أحمد — القاهرة ١٩٣٧

« صورة الأرض للخوارزمي »^(١) ظهرت منه طبعة كاملة بعناية متزك ،

(١) الكتاب ذكره أبو الفدا باسم « رسم الربع المعمور » ودرسه المؤرخ البولندي ليوليد

Lelewel وخرج بدعوى أعلنها ، هي أن الكتاب ترجمة لرسالة وضعها باليونانية مؤلف إغريق عاش في بلاد الإسلام وأفاد من المصادر الإسلامية . لكن دعواه انهارت من أساسها بعثور «سبيتا» على =

وبحوث عنه بقلم نلليو (١٨٩٥) ومتزك وهونجمان (١٩٢٩) ويقول كراتشكوفسكى : « يجب الاعتراف ، تبعاً لنلليو ، وبارنولد ، بأنه لا يوجد شعب أوربي واحد ، يستطيع أن يفخر بمصنف يمكن أن يقارن بهذا الكتاب الذى ألفه الخوارزمى ، أكبر رياضى عصره ، وواحد من أكبر رياضى جميع العصور على الإطلاق ، إذا أخذنا فى حسابنا اختلاف الظروف » .

« الذخيرة فى علم الطب ، لثابت بن قرة . ت ٢٨٨ هـ »

تحقيق الدكتور جورجى صبحى — ط الجامعة المصرية ١٩٢٨ .

« الحسن بن الهيثم : بحوثه وكشوفه البصرية — ت ٤٢٢ هـ »

الأستاذ مصطفى نظيف — الجامعة المصرية ١٩٤٢ .

« المناظر ، للحسن بن الهيثم » كرنكو ، ط حيدر آباد ١٩٢٨ .

« استخراج الأوتار فى الدائرة بخواص الخط المنحنى فيها ، لليرونى —

ت ٤٤٠ هـ » أحمد سعيد الدمرداش . الدار المصرية للنشر بالقاهرة .

« الآثار الباقية ، لأبى الريحان البيرونى » معهد الاستشراق ، طشقند .

« كتاب الجواهر فى معرفة الجواهر ، لليرونى » كرنكو ، حيدر آباد

سنة ١٩٣٧ .

« القانون المسعودى ، فى الهيئة والنجوم ، لليرونى » د. بول كراوس .

« القانون فى الطب ، للرئيس ابن سينا ت ٤٢٨ هـ » ١٣ جزءاً ط بولاق

١٨٧٧ ، طشقند ١٩٥٦ .

« الشفاء ، فى المنطق والطبيعات والإلهيات ، لابن سينا »

المجمع اللغوى بالقاهرة ١٩٥١ ، ١٩٦٥ .

= أصل المخطوط العربى بالقاهرة سنة ١٨٧٨ ، وقد لفت إليه العلماء بمقتضى نشرها فى عام ١٨٧٩ ، ١٨٨٢ ، ثم انتقل المخطوط بعد وفاته سنة ١٨٨٣ إلى ستراشبورج . انظر كراتشكوفسكى فى (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) ص ٩٨ من الطبعة الأولى للترجمة العربية للدكتور صلاح الدين هاشم .

« شكل القطاع ، لتصير الدين الطوسي — ت ٦٧٣ هـ ، الآستانة ، سنة ١٣٠٩ هـ .

« المعتمد في الأدوية ، لابن البيطار ، ت ٦٤٦ هـ »

الأستاذ مصطفى السقا . ط الحلبي ١٩٥١ .

« الفوائد في أصول علم البحار ، لأحمد بن ماجد » — ط باريس ١٩٢٤ .

« ثلاثة راهبانجات في علم البحار ، لأحمد بن ماجد »

شوموفسكى ، موسكو ١٩٥٧ .

بحوث فيلمان في كتاب « نهاية الإدراك في دراية الأفلاك » لقطب

الدين مسعود الشيرازى — ت ٦٣٤ هـ — تلميذ العالم الفلكي نصير الدين

الطوسي . وفي الكتاب مباحث في الكوزمولوجيا والمترولوجيا والميكانيكا والبصريات .

— وانظر ما نشر المستشرقون من تراث العرب الفلكي والجغرافي والملاحى ،

في فهرس كراتشكوفسكى لكتابه : « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » ، وفي

كتاب نالينو : « الفلك عند العرب » .

إلى جانب ما نشر علماءنا من بحوث في المجالات العلمية ، بمصطلحات

عربية أو معربة في العلوم ، تجدون بياناً لها في محاضرات الأمير مصطفى

الشهابى « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » . من منشورات المعهد .

• • •

ولا أثر من هذا الجهد السخى المبذول يصل إلى حياتنا العلمية ؛ ودعونا

من حياتنا العامة التى التقطت من بعض مصطلحات الجمعيين ، ما اتخذت

منه موضوع فكاهة ومادة تندر . .

والمفروض أن جهود العلماء في نشر التراث العلمى لعصر ازدهار الحضارة

الإسلامية ، واستكمال الحركة العلمية في التأليف والترجمة لمطلع العصر

الحديث في النصف الأول من القرن الماضى . . . كانت موجهة إلى تمكين

اللغة العربية من استرجاع مكانها في تدريس العلوم والتأليف فيها ، ونقل

كل جديد مستحدث إلى المكتبة العلمية العربية .

لكن الذى حدث ، هو أن الكليات العلمية في جامعاتنا ظلت بمعزل عن كل تلك الجهود ، وتابعت تدريس الطب والهندسة والطبىيات والرياضيات . . . باللغة الإنجليزية أو الفرنسية . وكأن الجامعات في وادٍ وجهود العلماء والهيئات في تعريب العلوم الحديثة ومصطلحاتها في وادٍ آخر .

باستثناء كلية الطب في الجامعة السورية ، التي تأسست في دمشق سنة ١٩١٩ - في عهد الملك فيصل الأول - باسم « المعهد الطبى العربى » لتحل محل كلية الطب التركية ، وصممت من عام تأسيسها على تدريس العلوم الطبية بالعربية . وكان مجلس أساتذتها أشبه بمجمع لغوى ، تدارسوا فيه المصطلحات التي جاءت في تراثنا من كتب الطب ، وفي الكتب المصرية التي ألفها علماءنا من عصر محمد علي ، والكتب التي ألفها أساتذة الطب في جامعة بيروت قبل أن تهجر العربية إلى اللغة الإنجليزية .

واستطاع أساتذة دمشق أن يؤلفوا كتباً قيمة في فروع الطب المختلفة ، وفي الكيمياء والفيزياء والمواليد :

فألف « الدكتور مرشد خاطر » سغراً في علم الجراحة من ستة مجلدات وأجزها في مجلدين .

وألف الدكتور « أحمد حمدي الخياط » كتاباً في علم الجرايم والاستاد « محمد جميل » في علم الطبيعة ، والدكتور « حسنى سبوح » في الأمراض الباطنية (٧ مجلدات) والدكتور « محمد صلاح الدين الكواكبي » في الكيمياء ... (١)

ولكن هذه التجربة الناجحة بالعبية لم تتكرر .

بل لم نستطع ، بعد أكثر من أربعين عاماً ، أن تقنع جامعات وطننا العربى الحديثة بتعريب كلياتها العلمية .

(١) لكلية طب دمشق جهود أخرى في الميدان : أشار إليها الأمير مصطفى الشهابى : المصطلحات ، ص ٥٨ .

وكانت المفارقة العجيبة أن جامعة الأزهر ، أعرق جامعة إسلامية في الشرق الإسلامي ، وجامعة الرياض ، عاصمة الجزيرة العربية ، اعتمدتا اللغة الإنجليزية للتدريس فيما استحدثتا من كليات علمية !
وبدا كأن قضية العربية وعلوم العصر ، قد وصلت إلى باب مسدود . .

• • •

ثم كان الفصل الأخير من هذه القصة المعقدة ، رسالة من موسكو تحمل مجموعة من الكتب العلمية الحديثة مطبوعة بالعربية الفصحى في « دار مير » للطباعة سنة ١٩٦٨ !

ولم نسمع أن بلخانا عقدت هناك ليحث مشكلات هذا التعريب ، أو أن جدلا أثير حول صلاحية اللغة العربية لأداء علوم العصر !
وإنما خرج كل كتاب يحمل اسم العالم الذي ألفه :
ف تسيجيلسكي : اللحام الكهربائي .

ما ليشيف ، ونيكولايف ، وشوفالوف : أسس الميكانيكا العملية .
أفروتين : أسس تشغيل المعادن .
جلاجوفا : الدوال ومنحنياتها .

وتابعت « دار مير » في موسكو « نشر الكتب العلمية للعربية ، في أحدث علوم العصر . أذكر منها :

بيولوجيا الفضاء ؛ طاقة الذرة ؛ نظرية الاحتمالات ؛ علم التحكم الأنوماتيكي ؛ نظرية النسبية ؛ أسس الميكانيكا التطبيقية ؛ مقاومة المواد ؛ الرياضيات العالية للمدارس الفنية

• • •

ما أقسى الدلالة التي تعطيها هذه الكتب العلمية المطبوعة بالعربية في موسكو ، بعد كل ما تضخم به رصيدنا من تقارير اللجان ومؤتمرات المجامع وجهود العلماء ، على امتداد نصف قرن وأكثر !

وما أبلغ هذا الفصل الختامى لما طال جدلنا فيه وتعددت أزمنا به .

لقد بدأت القصة بعزل الاستعمار لغتنا عن العلم : ثم الدعوة إلى هجر لغتنا واستعارة الإنجليزية أو الفرنسية للعلوم الحديثة ، وكأن هاتين اللغتين ، دون الألمانية والروسية أو اليابانية والصينية مثلاً ، هما المفتاح السحري لكنوز العلم .. وانتهت بكتب دار مير للطباعة في موسكو ، في عصر اقتحام الفضاء والوصول إلى القمر ؛ فأين نحن من البداية ومن النهاية ؟

* * *

وحين أقول : انتهت القصة ؛ فأني أعني أنها انتهت ، أو يجب أن تنتهي من حيث هي قضية لغوية ظلت معروضة أكثر من نصف قرن ، تواجه الأمة العربية بدعوى عجز لغتها القومية عن أداء العلوم الحديثة وقصورها عن نقل علوم العصر ، وتلقى عليها تبعة تخلفنا العلمى وفاقتنا الثقافية . . .

ويبقى أن يلتمس الباحثون أسباباً أخرى لاستمرار عزل اللغة العربية عن معاهدنا العلمية العالية ، بعد أن خرجت دعوى عقم لغتنا وعجزها من مجال الخصومة والجدل ، وظهر بوضوح أننا في تسويق عذر جامعاتنا بهذا العقم في العربية ، والتماسنا شتى الوسائل لعلاجها ، كنا كمن يحرق في البحر . . .

* * *

وإذا كانت العربية قد صمدت لكل تلك الحملات الضارية التي جاءت بها من الأجانب الغرباء ومن أبنائها المتغربين ، نحاربها باللهجات العامية حيناً وبالخط اللاتيني حيناً آخر ، وتتهمها بالبداءة والعقم فتعزلها عن الميدان العلمى لتظل نائمة بها عن روح العصر ،

أقول : إذا كانت العربية قد صمدت لهذه الحملات ، فلأنها دون ريب تملك من القوة والحيوية والصلاحية للبقاء ، ما قاومت به محاولات المسخ ورفضت نبوءة المنتبئين لها بالموت . . .

المغرب العربي والغزو اللغوي

- جريمة العصر
- المعركة اللغوية في الجزائر

obeikandi.com

جَرِيْمَةُ الْعَصْرِ

حين تمتحن أمة بسرقة لسانها ، تضعيع :
تُمنَح شخصيتها القومية وتبتر من ماضيها
ونراثها وتاريخها ، ثم تظل محكوماً عليها بأن
تبقى أبداً تحت الوصاية الفكرية والوجدانية
للمستعمر ، حتى بعد أن يخلو عن أرضها .

وبمضي الزمن ، يغلو هذا الاستعباد
القهرى ولاء فكرياً لمن كان لها بالأمس
علواً .

obeikandi.com

اختلقت طبيعة المعركة اللغوية باختلاف الأقطار العربية ، كما تفاوتت أسلحتها بتفاوت ميادين الصراع .

وقد مضى القول فيما واجهت العربية في مصر والمشرق ، من حملات ضارية صمدت لها فاستطاعت أن تنجو من التفريط في لسان قوميتها ، وإن لم تستطع بعد أن تتخلص من آثار الغزو الفكري ، ومن عزل العربية عن الكليات العلمية بجامعة المشرق ، باستثناء الجامعة السورية في دمشق .

أما في أقطار المغرب ، فكان جهد الاستعمار أن يسلخها عن قوميتها العربية وشخصيتها الإسلامية . ومن ثم اتجهت الحملة الضارية إلى حرمان بلاد المغرب من لسان قوميتها وعزلها عن ماضيها الذي امتد ثلاثة عشر قرناً لم تعرف فيه غير العربية لساناً وثقافة ، والإسلام ديناً وحضارة .

وكانت جريمة العصر الكبرى ، محاولة الاستعمار أن يسرق لسان أمة أعرق منه في الوجود ، وأغنى في الميراث الحضاري .

والأمة قد تمتحن باحتلال أرضها فتناضل من أجل الحرية حتى تستردها على المدى القصير أو الطويل .

وتمتحن باغتصاب خيرات أرضها وأرزاق بنينا ، فتحتمل الجوع والحرمان ، وتقتات من أملها المرجو في الخلاص .

بل قد تحارب في عقيدتها ، فيتصدى الضمير الشعبي لحمايتها ، بالرفض والتحدى .

لكنها حين تمتحن بسرقة لسانها تضيع !

تمسخ شخصيتها القومية وتبر من ماضيها وتراثها وتاريخها ، ثم تظل محكوماً عليها بأن تبقى أبداً تحت الوصاية الفكرية والوجدانية للمستعمر ، حتى بعد أن يجلو عن أرضها .

يشدها إليه نوع من الاستعباد الفكرى ، إذ لا تجد غير لسانه وسيلة للظن والتعبير ، ولا تلمس في غير مكتبته ، زادها الفكرى والأدبى والثقافى .
وبمضى الزمن يغدو هذا الاستعباد القهرى ، ولاء فكرياً وروحياً لمن كان لها بالأمس عدواً !

لطول ما نهل أبناؤها المثقفون من نبع أدبه وفكره ، وانحصروا في فلكه لا يرون الدنيا إلا بعينه ، ولا يحسون طعم الحياة إلا بمذاقه ، ولا يحققون وجدانهم إلا بنبضه !

وهم بحكم ثقافتهم العالية ، يشغلون مراكز التوجيه والقيادة للرأى العام ، وعن طريقهم يتسلط الغزو الفكرى على الشعب الذى رفض وجود المستعمر !
وكثيراً ما يتصدون لمحاربة الذين صانوا لسانهم القوى واعتزوا بثقافتهم الأصيلة ، فيتصدع الكيان الوطنى من أثر الصدام المرير بين دعاة الأصالة يهتمون المتفرجين بالمرق والعقوق والكفر ، وبين دعاة الثقافة الأجنبية يهتمون خصومهم بالرجعية والحمود ، ويرون فيهم هياكل من حفريات عصور غابرة !

• • •

والغزو اللغوى قد تسلط على تونس والجزائر والمغرب ، لكن المعركة لم تصل إلى ذروتها الضاربة مثلما وصلت إليها في الجزائر ، بحكم ظروف تاريخية وأوضاع إقليمية حممت المغرب من تلك المحنة ، لعمق إحساسه بدوره التاريخى في هجرة الإسلام إليه ديناً وحضارة بعد نكبته في الأندلس ، وإحساسه الواعى كذلك بموقعه (الاستراتيجى) الحساس ، في الجبهة المغربية للأمة الإسلامية ، فضلاً عن قصر الأمد الزمنى لمحنته بالاستعمار ، بالقياس إلى القطر الجزائرى الذى طال عليه الليل قرناً ونصف قرن !

وعلى الزمن الطويل ، بدا أن الجزائر فقدت لسانها وأضاعَت شخصيتها وخسرت معركتها في المجال اللغوى .

لكن معركة التحرير الباسلة ، كانت وحدها كافية لأن تكشف لذوى

البصيرة منا ، عن وجه الحقيقة التي غابت عنا زمناً كنا نقرأ فيه لكُتاب
الجزائر ما تنشره لهم مطابع فرنسا وتروج له ، لا يعنيا منه أن يلعنوها بقلدر
ما يعنيا أنهم أضاعوا لسان قوميتهم !

إن إضاعة اللسان تعنى إضاعة الذات ، والشعب الذي خاض معركته
الباهرة لتحرير بلده وقدم أكثر من مليون شهيد فدية لشرف الإنسان ،
لا يمكن أن يكون قد أضاع ذاته ، ومن ثم لا يمكن أن يكون قد ضيع
لسان قوميته ، وإن بدا الأمر في ظاهره على عكس ذلك .

فلننظر في قصة الغزو اللغوي في الجزائر ، من حيث هي مثل لما امتُحِنَتْ
به العربية في أقطار المغرب ، وبقيت على الرغم منه حيّة لا تموت .

obeikandi.com

المعركة اللغوية على أرض البطولات

في شهر أغسطس من عام ١٩٦٣ ،
انعقد مؤتمر المعلمين العرب في عاصمة الجزائر ،
وكان التعريب « قضية » تأخذ مكانها في
برنامج المؤتمر ، ويطول حوارنا حولها ثم
نعلم ما نرى لها من مقترحات وتوصيات .

بعد خمس سنوات ، انتقل التعريب
من « قضية » معروضة للبحث والنظر ، إلى
« معركة » مترامية الأبعاد ، انطلاقاً من
معركة التحرير الكبرى ، وامتداداً ثورياً لها .

وقضية التعريب في الجزائر ، من القضايا الكبرى التي فاتتنا كثير من أسرارها وعُقدِها ، وقصُرت رؤيتنا عن لمح أبعادها .

وعذرنا في ذلك ، أن حجاباً كثيفاً من الصمت قد عزلنا عن الجزائر قرناً كاملاً إثر قضاء الاستعمار على المقاومة الباسلة للشعب بقيادة الأمير « عبد القادر الجزائري » . ثم لما توهج الضرام الثورية في معركة التحرير ، شغلنا بها كما شغل العالم المعاصر كله . وبعد النصر شغلنا أجهزة الإعلام بالصراع السياسي هناك عن الصراع الفكري . وغلب على الفهم العام أن مأساة الغزو اللغوي بلغت هناك من العمق والنفوذ والشمول ، بحيث لا أمل لهذا الجيل ، وربما لأجيال بعده من شعب الجزائر ، في النجاة من مخنة ضياع لسانه القومي الذي سرقه الاستعمار .

واكتفت بالجمهرة من مثقفينا بأن نقرأ لأدباء الجزائر الذين كتبوا ويكتبون باللغة الفرنسية ، من أمثال : محمد ديب وكاتب يس ومالك حداد ومولود فرعون ومولود معمري وآسيا جبار . . .

عن تصور خاطئ منا ، لموقف الشعب الجزائري من اللغة الغازية ، وعن قصور وتقصير في تتبع الجولة الثورية لمعركة التعريب على أرض البطولات ...

فما قصة الغزو اللغوي للجزائر ؟

وما أبعاد المعركة التي تواجهها الجزائر المستقلة فيما تواجهه من مخلفات ليلها الطويل ؟

والقصة بدأت بالغزو الاستعماري سنة ١٨٣٠ ، ونحتاج مع ذلك إلى أن نُطِيل من بعيد على مسرح الأحداث قبل ليل الاستعمار ، لفهم أبعاد الصراع اللغوي الذي احتدم هناك .

حتى القرن الحادي عشر الهجري ، الثامن عشر الميلادي ، كانت

الجزائر تأخذ مكانها المرموق من أقطار المغرب ، في خدمة علوم العربية والإسلام ، وتقدم إلى الميدان أعلاماً من رجالها حملوا الأمانة وكانت إليهم رحلة طلاب العلم .

ويبدو أن عوامل الضعف التي انتابت الأمة الإسلامية في العصر التركي ، حلت علماء الجبهة المغربية على أن يتشبثوا بمشعل النور الذي لم يكن قد بقي للأمة سواه ، فعمرت مجالس العلم بأئمة منهم كانوا نجوم الداجية ودليل الركب السارى بليل . .

ونظرة سريعة إلى كتب التراجم لعلماء الجزائر حتى القرن الحادى عشر الهجرى ، تكفى لأن تعطى مع القرآن الكريم ، التفسير التاريخى لحركة الاستعمار حين تجرد لحرب الإسلام فلم يجد سلاحاً أمضى من القضاء على اللغة العربية . .

من حيث قدر أن أرض الجزائر لن تحتل وطاته عليها ، طالما بقي لها لسانها العربى ، يصلها بكتاب دينها ويعطيها تراث علمائها الأئمة الذين عمرت بهم ربوعها قبل أن يجتاحها الغزو .

أذكر من هذه الكتب التى ترجمت لعلماء الجزائر والمغرب حتى القرن الحادى عشر الهجرى :

« نفح الطيب » و « روض الآمن » و « أزهار الرياض » للمقرئ التلمسانى .

« ترتيب المدارك » للقاضى عياض السبتي .

« الديباج » لابن فرحون .

« نيل الابتهاج بتطريز الديباج » للمؤرخ الفقيه ، أبى العباس أحمد بابا السودانى التيكيتى .

« المعيار العربى عن فتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب » لأحمد بن يحيى الوئشريسى .

« عنوان الدراية في علماء بجاية » لأبي العباس أحمد الغبريني القسنطيني .
 « البستان في ذكرى الأولياء والعلماء بتلمسان » لابن مريم الشريف التلمساني .
 « تعريف الخلف برجال السلف » لأبي القاسم محمد الحفناوي الجزائري .
 « فهرس الفهارس » لعبد الحى الكتاني .
 « نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان » لابن زاكور القاسي .

....

واللافت حقاً ، أن جمهرة هؤلاء العلماء كانوا من أولياء الله الصالحين الذين جعلوا من خدمة علوم العربية والإسلام وسيلة إلى الله وقرىبي ، وتابعوا على حمل اللواء خلفاً عن سلف .

فأحمد بن زكري ، الفقيه الأصول المنطقي ، كان إمام عصره علماً وديناً وتقياً .
 وشيخه « ابن زاغو » كان ولياً صالحاً وإماماً قدوة وناسكاً عابداً وعالماً محققاً .
 « سيدى زروق » الإمام العالم الفقيه المحدث ، كان من مشايخ الصوفية العاملين الذين جمعوا بين الحقيقة والشرعية .

وشيخه « سيدى عبد الرحمن التعلبي » الولي الزاهد الذي تعزز عاصمة الجزائر بمزاره المبارك ، اختصر (تفسير ابن عطية) في جزأين وشرح ابن الحاجب .
 ونلميذه التقي الزاهد « أحمد بن عبد الله الجزائري الراوى » ألف منظومته المشهورة في العقائد « المنظومة الجزائرية » في نيف وأربعمائة بيت .

« وعبد الرحمن الأخضرى » صاحب « متن السلم » المشهور في المنطق و « الجواهر المكنون » في البلاغة و « الدرة البيضاء » في العبادات ، كان ولياً مباركاً ، وضريحه معروف مزار .

« والشريف الحسنى التلمساني » أبو عبد الله محمد الإدريسي « إمام عصره بإجماع ، والذي تخرج عليه جيل من صدور العلماء وأعيان الفضلاء ، يذكرون في تاريخه أنه كان يطيل الانقطاع للعلم والعبادة ، وقد بقي مرة ستة

أشهر عاكفاً على الدرس لم ير أولاده ، وربما وُضع له فظوره في الصيام فيُشغل عنه بالنظر في مسائل العلم ، حتى يؤتى بسحوره .

• • •

ويلفت النظر كذلك ، اجتماعُ الطائفة من علماء الجزائر الأولياء . في الجليل الواحد :

ففي ترجمة العلامة المحقق والقاضي المؤرخ « المقرئ التلمساني الفاسي » وهو من أعيان القرن الحادي عشر الهجري ، نقرأ أنه كان من شيوخه في تلمسان .

« علماها الشايعان وعالماها الراسخان ابنا الإمام : أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى ؛ ومفتي تلمسان أبو موسى عمران المشدالي ، ومشكاة الأنوار أبو إسحق إبراهيم بن حكيم الكتاني ؛ والقاضي المفتي أبو عثمان سعيد ابن أحمد التلمساني ؛ وعالم الصلحاء وصالح العلماء أبو محمد المصمودي . ونادرة الأعصار أبو عبد الله النجار ؛ والمقرئ الراوية أبو عبد الله المكتاسي . وإمام الحديث والعربية أبو محمد عبد المهيمن الحضري ؛ والفقيه أبو عبد الله الجزولي ، والشيخان أبو زيد عبد الرحمن الصنهاجي ، وأبو عبد الله محمد العبدري التلمساني ؛ وقاضي بجاية أبو عبد الله محمد الزاوي ؛ وإمام المعقولات أبو علي حسن بن حسن ؛ والقاضي المحدث أحمد بن حسين القسنطيني .. » .

كل هؤلاء وعشرات أمثالهم ، كانوا هناك ملء القلوب والأسماع والأبصار مهابة وجلالا ، فلما أوغل الليل بقيت أرواحهم تحوم حول الربوع التي عمرت بهم زماناً ، وبقيت ذكراهم تحرس الضمير الشعبي وتذكى نضاله عن وجوده الإسلامي العربي ، بقدر ما كانت تورق المستعمر فتغربه بالإمعان في الكيد للعربية حرباً للإسلام .

• • •

وقد اجتاحت الاستعمار الجزائر وليس فيها من يتكلم الفرنسية ، فكان عليه أن يتصل بالرأى العام الجزائري عن طريق ألسنة وأقلام عربية مستعارة أو

مأجورة . لكنه بدأ من اللحظة الأولى في فرنسة أجهزة الحكومة ودوائر العمل ، ثم فرنسة التعليم فرنسة كاملة لم تدع للغة العربية في المنهج المدرسى غير ساعتين في الأسبوع ، تُدرس فيهما اللهجة العامية ، لغة ثانوية إضافية .

وإلى أن يتم الغزو ، كان المستعمر يتصل بالشعب بلغته الدارجة ، يحارب بها الفصحى لغة القرآن الكريم والثقافة العربية والفكر الإسلامى . ومن سنة ١٨٤٧ إلى سنة ١٩٢٧ ، كانت (جريدة المشرق) الرسمية تصدر بالفرنسية ، وبعربية ركيكة مسفة ، موجهة إلى الشعب . وأُنقل هنا من افتتاحية عددها الأول - سبتمبر : ١٨٤٧ - ما نصه :

« اعلمو يا مسلمين أرشدكم الله أن المعظم سلطان أفرنضه نصره الله ، اتفق له برأيه وقوع هذا " المشرق " مختص لفائدتكم وخيركم وتوافر النعمة عليكم . والشاهد لكم في ذلك ، كل ما يدل على نعمتكم هو بفؤاده . ويرضى لكم مبرّضا - ما يرضى - لنفسه ولا سيما أنكم بمسكن قلبه كعزيز الرعية . واعلموا أن سلاطين النصارى مهما أرادوا يعرفون الرعية بالأمور الواقعية ، يبعثون لهم رسائل خبرية - جرائد - . . . وسعادة سلطان أفرنضة له معرفة ومحبة بالغة مع سلاطين الإسلام وهم صاحب اصطنبول وصاحب العجم وصاحب الهند وصاحب مصر وصاحب الغرب - المغرب - وصاحب تونس ، وثبوت المحبة بينه وبين هؤلاء الدول العظام ، معرفتهم بإحسانه وعظيم سطوته وقوته مدة مديدة . . . »

« وأيضاً آخر فوائد هذا المشرق الذى أنعمنا عليكم بإنشائه ، هو لما تعلمو بمقصودنا وجميع ما يجب عليكم من التصرفات ، وتطلعون على هذا الأخبار : ينشئ عنكم بسبب ذلك كلام الوشات أهل الشيطنة دمرهم الله - يعنى بالوشاة وأهل الشيطنة : دعاة المقاومة ، وعلى رأسهم الأمير عبد القادر وبو بغلة - الذين يسعون لكم فى الهلاك وجر البلاد إليكم منا ، لتخليطهم وخبلهم . ونبين لكم طريق الشرع بالعدل التى نسير نحن بها . كما نعلمكم بالفوائد التى تحصل لكم بها الألفة معنا ، فهذا غرضنا ومقصودنا . »

وجريدة (المبشر) بدأت تظهر عام ١٨٤٧ وهو العام الذى شهد مأساة القضاء على مقاومة الجيش الجزائرى للاحتلال ، بقيادة الأمير عبد القادر . وقد ظلت تصدر إلى عام ١٩٢٤ ، باللغتين الفرنسية والعربية ، وفى هذا شاهد على أن الغزو اللغوى عجز بعد نحو قرن كامل . عن الاتصال بالشعب بغير لغته العربية التى لم يتخل عنها !

• • •

وإذا كان مفهوماً أن تصدر هذه الجريدة الاستعمارية الرسمية باللغتين الفرنسية والعربية ، فما وعاه تاريخ الغزو ، أن الصحف غير الرسمية للجالية الفرنسية ، لم تستطع بعد عشرات السنين من بدء الاحتلال ، أن تستغنى عن الاتصال بالشعب الجزائرى بلسانه العربى !

منها مثلاً (جريدة الأخبار) التى أذن « المارشال كونت دى فالى » لطلّاع المهاجرين الذين تدفقوا على الجزائر لاستيطانها فى إصدار هذه الجريدة عام ١٨٣٩ ، قبل ثمانى سنين من انتهاء المقاومة المسلحة الأولى للشعب الجزائرى .

وظلت (الأخبار) تصدر باللغة الفرنسية سبعين عاماً ، ثم بدأت من عام ١٩٠٩ تصدر باللغتين العربية والفرنسية !

وكان فى استطاعتها أن تستغنى بقراءها من المستوطنين الفرنسيين - الذين زاد عددهم من أربعين ألفاً سنة ١٨٤١ ، إلى مائة وثلاثين ألفاً عام ١٨٥٠ ، ثم اطردت الزيادة عاماً بعد عام - ريثما تمّ فرنسة اللسان الجزائرى ، وكان فى حسابها أن يحسمها الغزو اللغوى فى وقت قصير ، لولا أنها أدركت بعد طول التجربة ، عقم الانتظار الطويل لفرنسة الجزائريين ، وقد مضى على الاحتلال أكثر من سبعين عاماً ، لم يستطع خلالها أن يفرض لغته الدخيلة وثقافته الغازية ، على الشعب الجزائرى العربى المسلم .

• • •

ما الذى حمى وعى هذا الشعب ، وقد كان ثمانون فى المائة منه أميين ، فلم يُضَع ذاته فى دوامة الأعصار الجائح ؟

حماه « القرآن الكريم » كتاب الأميين الذين حيل بينهم وبين التعليم أو رفضوا أن يردوا منهله المندس برجس الاستعمار ، وبقيت لهم مدرستهم القرآنية ترهف وعيهم وتنير بصائرهم وتنسخ أميتهم بكلمات الله تركيهم وتعلمهم الكتاب والحكمة ، وتلزمهم ديناً وعقيدة أن يرفضوا العبودية لغير خالقهم ، وأن يقاوموا البغى والطغيان .

فإذا كانت الأجيال التى تخرجت بعد ذلك فى المدرسة الفرنسية قد نسبت أن آباءها الأقربين لم يكونوا يعرفون غير لغتهم العربية لساناً وثقافتهم الإسلامية زاداً ومورداً ، فإن الضمير الشعبى لا يمكن أن ينسى . .

والتاريخ معه ، يذكر ماضى الجزائر القريب حين أعيا المستعمر أن يتصل بشعبها إلا بلسانه ، ويذكر ماضيها غير البعيد قبل ليل الاستعمار .

• • •

وإلى مستقبل هذا القرن العشرين ، كانت العربية ما تزال تناضل عن وجودها فى الجزائر المحتلة ، مزودة برصيد الأئمة العلماء من سلفها الصالح . ومن عجب أن الاستعمار وجد نفسه مضطراً تحت ضغط الضمير الشعبى إلى أن يحتال على الموقف الصعب فيتآلف إلى الأمة بإظهار التسامح والغيرة على عقيدتها وتراثها . وكما كان « قصر الدوبارة » فى مصر الإسلامية يحتفل بليلة القدر ويدعو شيوخ الأزهر إلى الحفل الدينى المشهود فى مركز ممثل سلطة الاحتلال ، لم يجد الحاكم الفرنسى للجزائر المحتلة بأساً فى أن يرتدى قناع التسامح ، فبنى « المدرسة الثعالبية » بجوار مقام سيدى عبد الرحمن الثعالبى فى حى القصبة بالعاصمة الجزائرية ، ويندب اثنين من الشيوخ لنشر كتاب أو كتابين من تراجم علماء السلف الصالح !

أما الثعالبية ، فبنيت عام (١٣٢٢ هـ : ١٩٠٤ م) فى عهد الوالى الفرنسى

« مسيو جوناو » وتستقبل الداخل إليها عن يمين المدخل ، لوحة رخامية كبيرة محفور عليها ستة أبيات هابطة سقيمة ، نظمها الشيخ « أبو القاسم الحفناوي » تمجيداً لعالي الجناح نجم العصر سمو الوالي جوناو ، وقال فيها مؤرخاً :

في كل جيل من الأجيال أخیارُ وخیرهم من له فی العلم أخبارُ
 بالعلم شاد بنو الیونان دُورهمُ وكان للأمرُبِ فیهِ بعدُ آثارُ
 وهذه آیه العرفان مشرقه بالثعلبية ، نِعم الاسمُ والجارُ
 شیدت وتاریخها لجنسنا فتحت وذو الولاية نجمُ العصر جوناو
 (١٣٢٢ هـ) (١٩٠٤ م)

وأما الكتابان ، فأحدهما :

(تعريف الخلف برجال السلف) صنفه الشيخ الحفناوي ، ناظم الأبيات ، وطبعه سنة ١٩٠٧ م صدرأ بتعينة إكبار من المصنف « إلى نجم العصر الوالي الفرنسي » جاء فيها ما نصه :

« ولما آلت ولاية القطر الجزائري للحازم الخطير سمو الوالي العام جوناو ، المجتهد في جلب المهمات ودفع الملمات ليل نهار ، صوّب نظره السامي نحو مسلمي الجزائر بمزيد الإمعان ، وأحسّى لجيلهم خير ما كان لأسلافه من مدينة الإسلام . .

« وشكراً لحكومتنا الجزائرية على المساعدة الجلية لطبع ما يسر أبناء وطننا وديننا من معارف الاعتبار وآثر الاختبار . .

والكتاب الآخر ، هو (البستان) ، في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان لابن مريم الشريف التلمساني .

تولى إعداده للنشر « الشيخ محمد بن أبي شنب المدرس بالمدرسة الثعالبية الدولية » وطبع سنة ١٩٠٨ برعاية مسيو جوناو ، عن نسختين خطيتين ، نسخة المكتبة الدولية الجزائرية ، ونسخة المستشرق الفرنسي « وليام مارسيس » مدير مدرسة الجزائر الثعالبية الدولية ١٩

وعلى مرأى من راعى الإسلام « جونا » ، استولى الاستعمار على كنوز التراث الجزائرى ، وعهد إلى « مسيو مارسيه » وكتيبة من زملائه ومساعديه المستشرقين فى فحصها ودراستها وفهرستها ، وأدخلها فى ملكية المكتبة الفرنسية . وقد نشر المجلد الأول من فهارس المخطوطات الجزائرية بعناية مسيو فانيان ، حلقة ثامنة عشرة فى سلسلة الفهرس العام لمخطوطات مكتبات فرنسا :
Catalogue Général des Bibliothèques de France. Tome XVIII, Alger

وكل ذخائره ، فى علوم العربية والإسلام .

وقد نُقل من هذه الذخائر ما نقل إلى فرنسا ، وبقيت جملة منه بين أيدي المستشرقين الفرنسيين فى مكتبة الجزائر التى دمرها الحريق قبيل الاستقلال . ولم تنج سوى بقايا مبعثرة كان العلماء قد حملوها إلى خزائنها فى القرى النائية والمعاقل الجبلية ، أذكر منهم الشيخ عبد الحميد بن باديس فى قسنطينة ، وشيخنا البشير الإبراهيمى فى الشريعة على قمة الأطلس ، والشيخ إبراهيم بيوض ، والفقيه ابن دودش قاضى معسكر ، والفقيه الحاج المختار بزاوية الهامل ، والفقيه الوانوغى مفتى بلدة الأصنام

وكانت هذه الذخائر زاداً لجماعة علماء الإسلام فى كفاحها للتعبئة الثورية ، حيث مضت تتحد طاقات الشعب لحوض المعركة ، وتنشر جريدة (الشهاب) مناراً وجريدة (البصائر) نوراً ، وتفتح المدارس العربية فى ظروف بالغة القسوة والخرج ، وتوفد طلابها لا ستكمال دراستهم العربية العالية فى جامعات القرويين بقماس والرباط بالمغرب . والزيتونة بتونس ، والجامع الأزهر وجامعات القاهرة ودمشق وبغداد .

حتى زين للاستعمار أن يضم أملاك الأوقاف الإسلامية إلى خزائنه ، وقد كان ريع هذه الأوقاف المورد المالى للمجاهدين الأبرار من علماء الجزائر .

وكان فى حسابه أن مثل هذا الإجراء يوقف التعبئة الثورية ، بإغلاق المدارس الأهلية وتعطيل (الشهاب والبصائر) ، لكن الشعاع الهادى من نور لغتنا والحياة

المدرسة القرآنية كان قد أضاء للشعب طريقه وحدا مسراه ، فانطلق يخوض معركة الجهاد المسلح عام ١٩٥٤ ، وهو يهزج بحذاء شيخه بن باديس :
 شعب الجزائر مسلمٌ وإلى العروبة ينتسبُ
 من قال : حاد عن أصله أو قال : مات ، فقد كذبُ
 أو رام إدماجاً له رام المحال من الطلبُ !
 وكان لا بد للشعب أن ينتصر . .

وحين نهيا مندوبو فرنسا وزعيمها دييجول . لتوقيع وثيقة استقلاله ، تسلل نفر من أعداء الحرية فأضرموا النار في مكتبة الجزائر بالعاصمة فالتهمت ما التهمت من كنوز تراثها ، وأتلف ماءُ الإطفاء ما بقي منها ، فتركها جنون التعصب والحقد ، مساء اليوم السابع من يونيو عام ١٩٦٢ ، أنقاضاً ورماداً وهشيماً . .

مطمئناً إلى أن الجزائر ستظل تدور في فلك المستعمر ، بعد أن ضاع لسان جيل من مثقفها ، وضاع تراثها !
 وفاته أن معركة التحرير ذاتها ، قد أثبتت أن الوعي الشعبي قد عصى على التخدير والقهر والغزو ، وخاض المعركة تحت لواء عقيدته وقوميته ، وبقيت الجزائر عربية إسلامية .

بعد كل ما كان من محاولات المسخ والسلخ .
 وعلى رغم كل ما كان من تلك الصبغة الأجنبية الطارئة التي أقحمت عليها في ليل الاحتلال الطويل . .

• • •

ولقد واجهت الجزائر المستقلة أزماتها اللغوية . من بين ما واجهت من مخلفات الاستعمار وأعباء الحرية والاستقلال .

في شهر يوليو من عام ١٩٦٣ كان احتفال الجزائر بعيد استقلالها الأول ، وقد شرفتني بالدعوة إليه . فكانت أغنية النصر التي سمعتها في مهرجان العيد فظلت ملء قلبي ومسمعى حتى اليوم :

يا محمد* مبروك عليك* الجزائر رجعت إليك

وفى الشهر التالى مباشرة ، كانت قضية التعريب معروضة على مؤتمر المعلمين العرب فى دورته الثالثة بالجزائر ، أغسطس ١٩٦٣ ، وقد اشتركت فيها مع وفد مصر إلى المؤتمر .

بعد خمس سنوات رجعت إلى الجزائر للمرة الثالثة . فإذا التعريب لم يعد قضية تدرس ، وإنما صار معركة يسمونها فى أرض البطولات : معركة تحرير اللسان أو معركة الأصالة .

ويعتقد بسيط يقولون : إن الثورة المسلحة حررت التراب الجزائرى ، وبقي أن نخوض الجزائر معركتها لتحرير لسانها . وتحرير اللسان يعنى تحرير الفكر والوجدان والضمير . وبغير هذه الحرية يكون الاستقلال وهماً والنصر عقياً !

وحيث كان التعريب قضية مطروحة علينا فى مؤتمر عام ١٩٦٣ . بدت لنا نحن الأعضاء الوافدين من أقطار الوطن العربى هيئة يسيرة : يكفى لها أن تجمع الأمة على تحرير لسانها فيكون لها ما أرادت ، ومثل الشعب الجزائرى لا يشق عليه أن يفرض إرادته الحرة على أبنائه ، وقد فرضها على المستعمر فى عنفوان جبروته وشراسة طغيانه ، حين كان له حكم السيادة وسلطة الأمر والنهى .

لكنها ليست كذلك ، فى رؤية من ينظر إليها عن قرب .

وإنها لأعمق غوراً وأعقد مسلكاً . فى حساب من يواجهونها فى دوامة الصراع .

الخصوم فيها ، هم ضحايا فى الوقت نفسه !

ضحايا عهد طويل ، امتد قرناً وبعض قرن ، سيطر فيه المستعمر على التعليم المدرسى نظاماً وخطة ومنهجاً ولغة ومادة ومناخاً . ثم جعل شهادته المدرسية هى المؤهل الرسمى للوظيفة ، والصك المعترف به لأى عمل فى الدوائر والأجهزة التى تخضع للحكومة ، وفى المؤسسات التى يملكها المستوطنون . أو بتعبير أدق : جعلها بطاقة التكوين لضرورات العيش ووسائل الرزق !

فإن يكن الضمير الشعبي قد رفض هذا المسخ وآثر لأبناء الجزائر أن يكابدوا
الظماً العقلي ولا يشربوا من نبع مدنس ، وأن يؤثروا الجوع على خبز مسموم ،
فإن الظروف القاسية والأوضاع المسيطرة حكمت على فريق منهم أن
يسيروا في طريق التعليم الرسمي تأميناً لحق العمل وضماناً لمورد الرزق .
ولعدة أجيال ، تخرجت أفواج من هذه المدارس ، لا يملكون التعامل
أو التفاهم بغير لغة المستعمر ، ولا يجدون سبيلاً إلى زاد فكري ووجداني
إلا في مكتبته .

واستطاع الضمير الشعبي مع ذلك أن يشد أكثرهم إلى قضية وطنهم
فشاركوا في النضال قدر ما استطاعوا ، وكان منهم من شغلوا مراكز قيادية
في الموقع السياسي والديبلوماسي ، ومن جاهدوا في عرض قضية وطنهم باللغة
الفرنسية ، على الضمير الغربي المعاصر .

• • •

وجلا المستعمر ، وفي حساب أبناء المدرسة الفرنسية من الجزائريين .
أن يشغلوا المراكز القيادية في الدولة وأن يديروا أجهزتها بحكم ثقافتهم
العصرية ومؤهلاتهم الدراسية العليا .
ثم إذا بهم يسمعون فجأة - دعوة إلى التعريب تتجاوب بها آفاق الجزائر .
وكان من الطبيعي أن يتصدوا لمقاومتها .

لا عن خيانة للوطن في تغديرهم . ولا عن جهل منهم لشرعية حق
الأمة في تحرير لسانها

ولكن دفاعاً عن كيانهم ووجودهم ، وإدراكاً منهم لأبعاد دعوة تجعل
حامل " دكتوراه الدولة من جامعة السوربون " مثلاً . أمياً لا يقرأ ولا يكتب !
وشجعهم على مقاومة التعريب ، ظنهم أن الدولة الجزائرية الحديثة لا يمكن
أن تستغنى عنهم ، وهم من صنفوة مثقفها ، وذوو الخبرة بالعمل الإداري والفني
والأساليب الدبلوماسية .

وتصوروا أن دعوة التعريب لن تلبث أن تذهب مع الريح صرخة في واد !

وفاتهم حسُّ الوعي الثوري لأمة تريد تحرير لسانها واسترجاع مقومات شخصيتها الوطنية ، بكل ملامح عراقها وعناصر أصالتها .

وفاتهم كذلك ، أن فداحة التضحيات التي اقتضاها الكفاح المسلح ، لم تستنفد طاقة الشعب ، وإنما أعطته رصيذاً ثورياً يخوض به معركة الأصالة في تصميم وإصرار .

كيلا يتحول النصر إلى هزيمة !

• • •

وكان أن صارت « دعوة التعريب » إعلان ثورة وشعار مرحلة ، وهتاف جهاد ونداء معركة .

وتحدد عام ١٩٧٠ لوضع نهاية هذه الجولة منها . بمقتضى قرار جمهوري أصدره الرئيس « هواري بومدين » في أبريل من سنة ١٩٦٨ . يقضى بإبعاد أى موظف أو عامل في مؤسسات الدولة ، لا يعرف اللغة العربية . معلناً عن إصرار الجزائر على استكمال تعريب لسانها في موعد أقصاه عام ١٩٧٠ .

ومعطياً مهلة عامين آخرين لمن فاتهم دخول المدارس الشعبية لمحو الأمية العربية ، أو استكبروا أن يدخلوها . وبحسباً لإرادة الشعب في أن تخرج حركة التعريب من مجال الجدل الخطابي والحوار الكلامي إلى مجال التنفيذ .

وأتصور مع ذلك أن قرار عام ١٩٦٨ إيذان باقتراب الأزمة من ذروتها الدرامية العتيقة ، وإن أخذت إجراءات التعريب طريقها إلى التنفيذ :

الدواوين توشك أن تستكمل تعريبها بعد أن ظلت تدار بذوى الثقافة الفرنسية . والأسماء الفرنسية للميادين . والطرق والزنقات ، قد رُفعت واستبدلت بها أسماء جزائرية عربية صميحة .

ولافتات المتاجر تُرجم أكثرها إلى العربية ، واكتُفِيَ في بعضها بتغيير الحروف اللاتينية إلى حروف عربية .

والصحف اليومية تخصص صفحات كاملة لنشر دروس العربية .

والمدارس العربية لمحو الأمية تنتشر هناك وتكاد تضيق على سعتها بمن يحرصون على مكافحة أميَّتهم العربية قبل عام ١٩٧٠ .

ومعاهد المعلمين تضع في حسابها تخريج أكبر عدد من المدرسين لمواجهة أعباء التحول الثوري .

* * *

لكن هذه الإجراءات وأمثالها . هي أيسر ما في المعركة . حيث تفرض طبيعة الوضع مواجهةً عقْدٍ من التناقض الخطير بين أبناء الوطن الواحد، أثراً لرواسب الاستعمار والغزو من ناحية ، ومعاذاةً للموقف الصعب بين ضرورات الحياة الحديثة لشعب عريق تخلف دهرأ ، وبين ميراث عراقة الذي يرد إلى الجزائر شخصيتها الوطنية محررة من شوائب الغزو .

وحيث يتسع ميدان الصراع للخلط بين الرجعية والحفاظة . بين العصرية وعقدة الحاجة ، بين الطموح وفتنة الغربة !

وحيث تنحصر الرؤية غالباً في زوايا حادة ، لا تبصر من الموقف سوى جانب واحد ، ولا ترى من الصورة غير وجهه فحسب :

فالذين يَعمُونَ أن الانتهاء إلى الإسلام كان العنصر الأساسي في كفاح الشعب الجزائري ، قد يغيب عن أكثرهم أن ثورة سنة ١٩٥٤ لم تكن حركة دينية بالمفهوم الشائع ، وإنما كانت نضالاً عن عقيدة أرهفت وعى الشعب لحقوق إنسانيته ، وحمَلته تكاليف وجوده الحر ، بكل ما يعنى من رفض الرق والاستبداد والتخلف .

والذين قرءوا تاريخ الحركات الثورية المعاصرة ، وقد انطلقت من دعوات

مذهبية منتصرة ، قد يخطئهم التمييز بينها وبين الثورة الجزائرية التي قام بها شعب لم يتصل بهذه المذاهب في ليل الاستعمار ، فضلا عن كون الجمهورية الشعبية من الثوار اعتصمت بمعقلها في الجبال والريف والوادي ، بمعزل عن صراع المذاهب المعاصرة التي قد يتصل بها أبناء العاصمة والمدن الكبرى ؛ وينفر منها أبناء البادية والجبال . لأنها في تقديرهم بضاعة أجنبية ، يصدرها الغرب الذي استعبد الشعوب وسرق الأوطان والألسنة والعقائد !

والذين تصوروا أن الاستقلال نهاية الكفاح . وقعوا في خطأ تاريخي وفكري حين فصلوا بين حرب التحرير وبين استرجاع الشخصية الوطنية الجزائرية . متأثرين في هذا الفصل بالمفهوم الغربي للثورة الجزائرية وهو مفهوم يعزها عن أساسها الإسلامي فتقتصر رؤيته على جانبها النضالي ضد الاستعمار ، غافلا أو متغافلا عن كونها ثورة وطنية لشعب يعي ذاته ويذود عن مقومات وجوده وأصالته .

« وغير مجهول أن الثورة الجزائرية احتاجت في الجولة الفاصلة من نضالها المسلح . إلى خبرة فنية لم تكن متاحة للثوار من أبناء القبائل والجبال . وإنما أتاحت لعدد ممن تدربوا على أيدي المستعمر . فكانوا أداة استخدمتها الثورة في معركة التحرير . وما كان أداة في النضال المسلح ، يمكن أن يصير يعد النصر إلى سلاح ضد النضال الذي تفرضه طبيعة المرحلة الجديدة ، وعقبة في طريق المد الثوري لتحرير الشخصية الوطنية للجزائر .

وتفادى هذا الخطر ، قد يسلم تلقائياً إلى خطر آخر هو النفور من التفتح للفكر الغربي ، والتردد في قبول أساليب التقدم العلمي مع ضرورتها لعملية البناء وحاجات التنمية الاقتصادية » ^(١) .

• • •

إلى ذلك البعد ، تتعقد معركة التعريب وتأخذ وضعها الصعب بين متناقض المذاهب وصراع القيم وملتنى التيارات .

وما كنت أدري أنها بلغت ذاك المدى من التعقد ، حتى كانت رحلتى إلى الجزائر فى مطلع صيف سنة ١٩٦٨ ، هى التى كشفت لى عن مسالكها الصعبة ونخبوطها المشابكة :

ولم يكن إدراكى لهذا كله عن حدى افتراضى أو اجتهاد شخصى ، بل فرضه علىّ ، وعىّ الجزائر لأبعاد معركتها ، وإصرارها على أن تحسمها بالنصر الذى يعطى استقلالها قيمته . ويفسح الطريق أمام طموحها دون أن يمسح أصالتها أو يهدر تضحياتها .

والضمير الشعبى الذى تحدى جيروت الاستعمار . هو الذى يحرس الثورة الوطنية ويوجه عمليات التصفية لحساب قضية النضال القومى لا عليها .

وإصلاً بين حاضر الجزائر وماضيها القريب والبعيد ، ومنطلقاً بها فى ثورية واعية لسير خطاها على الدرب ، مرتبطة بجذورها الأصيلة فى أعماق أرضها الطيبة .

ولقد كان من جديد ما شاهدت من معالم الجزائر العربية الحرة مكتبة الجامعة فى مبناها الشامخ الأنيق الذى بدئ فى عام ١٩٦٤ بعد عامين من الحريق . وافتتحه : الدكتور أحمد طالب الإبراهيمى وزير التربية الوطنية « فى شهر أبريل من سنة ١٩٦٨ . نفس الشهر الذى صدر فيه قرار الرئيس بومدين بتحديد عام ١٩٧٠ موعداً أقصى لاستكمال تعريب العاملين فى أجهزة الدولة ومؤسساتها ، ونفص بقايا الصبغة الدخيلة التى ترفضها الأمة .

• • •

هل يبدو القرار صعباً ؟

الواقع أننا نبالغ كثيراً فى تصور نجاح المحاولة الاستعمارية هناك . حين

نحصر الرؤية في الأحياء الفرنسية من العاصمة وبعض الثغور .
لقد بقيت الأحياء الشعبية في العواصم بمعزل عن هذا الغزو ، كما بقيت
جبال الجزائر وريفها وبواديها معازل منيعة تصد التيار ، وتنفر من مجرد
الانصال بالرجل الغربي مهما يكن زيه أو قناعه ، لا عن انغلاق يرفض التفتح
كما فهم بعض المثقفين العصريين . ولكن عن يقين بأن هذا الموقف هو الذي
يحمي نضال الشعب ضد ذرائع الغزو .

أقول هذا وفي مسمعى صدى باق من أغنية الانتصار التي سمعت شعب
الجزائر يشدو بها في عيد استقلاله الأول :

يا محمد مبروك عليك

الجزائر رجعت إليك !

وأظنها تكفي لبيان مصير المعركة اللغوية على أرض البطولات

obeikandi.com

تعليم العربية ورأى فى أزمته اللغوية

ليست عقدة الأزمة ، فى اللغة ذاتها ،
العقدة فيما أتصور ، هى أن أبناءنا لا يتعلمون
العربية لسان أمة ولغة حياة ، وإنما يتعلمونها
بـمزل عن سلبقتهم اللغوية : قواعد صعبة
وقوالب صماء ، تجهد المعلم تلقيناً والتلميذ
حفظاً ، دون أن تكبه ذوق العربية ومنطقها
وبيانها

ما أشق على المفكرين منا ، أن يشدوا أعينهم عن المعركة الضارية التي تدور بيننا وبين أعداء البشر ، ليظلوا في مواقعهم الفكرية نضالا عن معنويات الأمة ، واشتغالا بقضاياها !

وما أصعب أن يُلقى أحدها باله إلى موضوع قويم . قد يبدو للنظرة العجلى بعيداً عن الصراع المحتدم على أرض الرسائل ، في المنطقة الموبوءة بالعصاة الصهيونية التي تشغل كل أجهزة الإعلام في الدنيا وتفرض عليها أن تلتقط أصداً عدوانها المسعور ، وأن تشغل بأفاعيلها في مسخ الحمى المقدس العزيز على البشرية المتدنية ، على اختلاف مللها وعقائدها ومذاهبها !

قد يُسبغ موقفنا ، أننا فيما نشتغل به من قضايا وجودنا المعنوي ، إنما نأخذ أماناً كنا في الموقع الفكري من ميدان معركة ضارية معقدة ، لانتحصر في الجانب العسكري وحده بمعزل عن معنويات الأمة .

ويبقى مع هذا التقدير لخطر القضايا الفكرية ، أننا نجد أشق العسر في أن نفرغ لمعالجتها بما تحتاج إليه من تدبر وأناة ، والمناخ من حولنا مسمم بأنفاس العدو الجاثم على منطقة مقدسة من حمانا المستباح !

• • •

لجنة . . ولجان :

في مثل هذا الجو النفسي المشحون بالتوتر والقلق والغضب . أحاول أن أنظر في أزمة التعليم المدرسي للفتنا القومية . من حيث فرضت هذه الأزمة نفسها على المرحلة الدقيقة الصعبة التي نمر بها ، فصدر قرار من « الأستاذ الدكتور محمد حلمي مراد : وزير التربية والتعليم » بتكليف لجنة من أساتذة العربية ومفتشها ، لدراسة هذه المشكلة على وجه السرعة . واقتراح الحلول التي توصي بها اللجنة لإصلاح التعليم المدرسي للفتنا القومية . .

وبقدر ما أعانت ظروفي وشواغلي ، شاركت في عدد من جلسات هذه اللجنة ، فتأثرت بما بذل السادة الزملاء من جهد مضمّن لكي يفرغوا من

المهمة التي كُلِّفوا بها في الزمن القصير المحدد لها . .

وذكرت بلحناً سابقات ، ألفتها الوزارة على طول نصف قرن ، للنظر في هذه المشكلة المزمنة ، إلى جانب ماتراكم في المجمع اللغوي من تقارير بلحانه . وما حفظت مكتبة « معهد البحوث والدراسات العربية » من بحوث الأساتذة الذين حاضروا في مشكلات حياتنا اللغوية .

وهي تزداد على الزمن تعقيداً . وتستعصي على كل الجهود والمحاولات . وكنت أتصور أن يبدأ عملنا في اللجنة الجديدة . بمراجعة أعمال اللجان السابقة . والنظر فيما اهتدى إليه الباحثون من تشخيص للأزمة ، وما قدموا من توصيات ومقترحات لحلها ، ومعرفة المصير الذي آل إليه كل ذلك . .

لكي نتفع بدراساتهم ونستنير بأرائهم ، ونبدأ من حيث انتهت خطواتهم . لكن وضع اللجنة لم يحتمل إلقاء أى سؤال عما مضى ، ومطلوب منها أن تنظر في الأزمة وتدبر حلاً عاجلاً لها ، في أشهر ثلاثة لا تزيد . .

ومنطق السرعة مفهوم . إذا قدرنا أن السيد الوزير ، حريص على أن تأخذ مقترحات اللجنة طريقها إلى التنفيذ ، قبل أن يحل الموعد الموسمى لطبع الكتب المدرسية لعام دراسي جديد .

فضلاً عما يعطى تحديد الوقت لمهمة اللجنة ، من جدية العمل وتأمين مصيره من الضياع الذي تعبر عنه القولة الذائعة : إذا شئت أن تدفن مشروعاً فأحبله على لجنة تدرسه !

ولكن يبقى سؤال لا يمكن تجاهله ، وإن لم يعرضه أحد :

نرى هل يستطيع أعضاء اللجنة الجديدة أن يهتدوا في هذا الوقت المحدود ، إلى مفتاح سحري يحل عقدة الأزمة اللغوية التي أعيت من قبلهم على الزمن الطويل ؟

أخشى أننا لا نملك إلا الوقوف عند الوضع الحالي لا نحمه بتغيير

جوهري ، وإنما قصارى ما نحاوله هو أن نعيد توزيع أبواب المناهج المدرسية للغة العربية ، فننتقل باباً من المرحلة الابتدائية أو الإعدادية إلى المرحلة الأعلى ، وقد نحذف فقرة من هذا الباب أو ذاك تيسيراً على التلاميذ ، وقد نقترح إضافة درس أو درسين على القدر المقرر في المنهج الحالي . . .

ثم نريح ضمائرنا ، فنعطى « المعلم » الدور الأول في إصلاح التعليم ، والمعلم لا يتم إعداده في عام أو عامين ، ويبقى السؤال : ماذا يُعلم ؟ وكيف يعلم ؟

وفي وهج المناقشة ، تبدو المشكلة معقدة أشد التعقيد ، تتشابك خيوطها فلا تستطيع أن تفصل بين المعلم والمادة المدروسة ، ولا بين المادة والمنهج المقرر ، ولا بين هذا كله والكتاب المدرسي !

وتواجهنا الأزمة بأبعادها المترامية وعُقدتها العvisية ، في الوقت الذي يلوح فيه الوقت المحدد لعمل اللجنة ، أشبه بنذير لا يكف عن ملاحقتنا ، فيبتر مناقشاتنا ويحصر رؤيتنا في نطاق محدود !

• • •

ظواهر الأزمة :

والظاهرة الخطيرة لأزمئنا اللغوية ، هي أن التلميذ كلما سار خطوة في تعلم اللغة العربية ، ازداد جهلاً بها ونفوراً منها وصدوداً عنها !

وقد يمضى في الطريق التعليمي إلى آخر الشوط ، فيتخرج من الجامعة وهو لا يستطيع أن يكتب خطاباً بسيطاً بلغة قومه !

بل قد يتخصص في دراسة اللغة العربية حتى ينال أعلى درجاتها ، وبعينه مع ذلك أن يملك هذه اللغة التي هي لسان قوميته ومادة تخصصه !

كل درس يتلقاه أبنائنا في لغتهم العربية ، ينأى بهم عنها . ونرى اللغات الأخرى يتعلمها أبنائنا في مدارسهم العامة . فيكسبون من كل درس معرفة جديدة بأمرار لغتهم !

وتسمع أساتذة كباراً يحاضرون بالعربية أو يلقون أحاديث في أندية

ثقافية ، وتقرأ لهم ما يكتبون من بحوث ومقالات . فندرك ما يعانون من إحساس باهظ بعقدة اللغة التي ترهقهم بالشعور بأنهم لا يملكون أداة التعبير السليم الطلق ، عن أفكارهم وآرائهم .

وتتضرى العقدة . حين تصل ببعضهم درجاتهم العلمية إلى مراكز قيادية في هيئة التدريس الجامعي بأقسام اللغة العربية ، فيعانون تدريسها بذوق أعجمي وينطقونها ببطانة يبنو عنها حس العربية ، ومن ثم يضمنهم الشعور بأنهم في غير أماكنهم ، ولا يزالهم الخوف من انكشاف ضعفهم أمام الأصلاء من الزملاء والطلاب !

وبغريزة الدفاع عن وجودهم ومناصبهم . يورقهم الحقد على هؤلاء الأصلاء ، فلا يجدون ما يشفيهم إلا أن يحاربهم بهمة الرجعية والتخلف وبالسخرية من "فقهنتهم ومشيختهم" !

وتعويضاً عن النقص والقصور ، تهاونوا بأصيل علوم العربية ، فطغت عليها بضاعة واردة من أساليب أعجمية معربة ومذاهب أجنبية مستعارة أقحمت على الدراسات اللغوية في أقسام التخصص ، على حساب ما لا يجوز أن يستغنى عنه دارسو العربية في المرحلة الجامعية .

وتتمزق أواصر الزمالة بين أعضاء الأسرة الواحدة ، فيتأثر المناخ العلمي بما يحدثه هذا التمزق من شر ونكر . وما يتركه من صدى في نفوس أفواج من الطلاب الذين يخرجون ليشغلوا وظائفهم في حياتنا اللغوية . ومنهم معلمو العربية في مدارسنا . . .

والأمر في اللغة العربية بمدارسنا ، لا يقتصر على مجرد كونها مادة يتعلمها التلميذ ويؤدي الامتحان فيها بمستوى أو بآخر . .

ولكنها بجلى أصالته ، ولسان قوميته الذي يصله بتاريخ أمته وتراث آبائه وأجداده ، ويتجاوب به فكرياً مع أبناء وطنه العربي على امتداد أقطاره ، واللغة التي ينبغي أن تقدم إليه ما يرضيه من الزاد الثقافي لكيلا يدين بولائه الفكري والوجداني للأجانب الغرباء !

استراح كثير منا فألقوا بالتبعة فيما نعانى من أزمتنا اللغوية ، على ظاهرة الازدواج اللغوي : نكتب ونقرأ ونتعلم ونشتقف بلغة ، ونعامل في حياتنا بلغة أخرى . وأفتنا الفكرى مشحون بأصداء الشكوى من هذا الوضع ، وضجيج الجدل المثار حول العامة والنصحى .

ولكن الرؤية النافذة لا تلبث أن تلمح من وراء النقع المثار ، أن الأزمة لا يمكن أن ترجع إلى وجود لغة للتخاطب والتعامل اليوى فى البيت والسوق ، وأخرى للتعليم والثقافة والأدب . .

إذ لو كان هذا الازدواج هو سدة الأزمة ، لما كان هناك وجه للشكوى من فساد العربية على ألسنة المتعلمين وأقلامهم ، وقد تعلموا من دروس العربية ما يكفى لتقويم ألسنتهم .

وكل اللغات تعرف هذا الوضع الثانى ، تختلف فيه لغة البيت والسوق عن لغة المدرسة والجامعة ، والفكر والأدب .

لكن التلميذ هناك ، ما يكاد يقطع مراحل تعليمه العام ، حتى يعرف قواعد لغته ويقرأ بها ويكتب ، دون أن يحول استعماله للعامة — فى مجالها — بينه وبين التمكن من لغة الثقافة والفكر ، والافتدار عليها .

وفقهاء العربية منا . يتعاملون فى حياتهم اليومية باللغة العامة ، دون أن تجور على أصالتهم فى القصصى أو تحجب عنهم أسرارها فى النطق والتعبير ، أو تهبط بمستواهم فى الأداء والبيان .

وقد سبق القول فيما عرفت العربية من ظاهرة الثنائية اللغوية من قديم جاهليتها المعروفة لنا : فى اللغة العالية المشتركة للشعر والنثر الفنى ، وفى لغات القبائل يتعاملون بها فى نطاق كل قبيلة .

ولم تشك العربية فساداً من هذا الوضع .

وعُرفت الثنائية اللغوية في نطاق أوسع ، حين خرج العرب من جزيرتهم بعد الفتوح الإسلامية واستقروا في الأقطار الجديدة ، يتعاملون بالفصحى المشتركة في الثقافة والعلم والرسميات ، ويتحدثون بلهجاتهم التي هاجروا بها من منازل قبائلهم في الجزيرة العربية .

ثم كان التحول التاريخي الكبير للحياة اللغوية لشعوب المنطقة التي ما لبثت أن تعربت بعد الإسلام وهجرت لغاتها القديمة إلى اللغة العربية ، وكان من الطبيعي أن تتفاوت لهجاتها المتعربة .

وبقيت الفصحى المشتركة ، اللسان القوي الموحد لشعوب المنطقة على اختلاف أصولهم البعيدة وتباعد أقطارهم ما بين المشرق الآسيوي ، وأقصى المغرب الأفريقي : بها يخاطب خطباؤهم ، وينظم شعراؤهم ، وتدون رسائلهم ، وتكتب مؤلفاتهم .

كما سبق القول في ازدهار الفصحى في عصر النهضة الإسلامية ، فكانت لغة الدين والعلم والأدب والثقافة والحضارة ، لم يَصْرِها أن شعوب الدولة الإسلامية كانت تتكلم بلهجاتها المحلية ، ولا عاق انطلاقتها وسيادتها ، وجود هذه الثنائية اللغوية ، تلتقي بها الأمة على لسان قوى موحد ولغة عليا مشتركة . وتختلف اللهجات لا باختلاف الأقطار فحسب ، ولكن باختلاف بيئات القطر الواحد .

فالقول بأن وجود لغتين : فصحية وعامية هو عقدة الأزمة في حياتنا اللغوية ، مردود بحكم التاريخ ، ومنطق الواقع المحكوم بسنن الاجتماع اللغوي التي تفرض وجود لغة عامة مشتركة للثقافة والأدب ، ولهجات محلية محدودة بنطاق البيئة والإقليم والقطر .

ولسنا بحيث نعيد الكلام هنا في العوامل والظروف التي نقلت هذه الظاهرة الطبيعية من وضعها المحكوم بقوانين الحياة وسنن الاجتماع ، إلى حيث صارت في أفقنا الفكري المعاصر ، أزمة حياتنا اللغوية .

واضح أنه مهما يكن من سعة الفروق بين الفصحى ولهجاتها العامية ، فالمفروض أن التعليم يصل التلميذ بالفصحى ويمكنه من الاقتدار عليها .

لكنه يقطع المراحل المدرسية واحدة بعد أخرى ، دون أن يستقيم لسانه بلغة التعليم والثقافة .

فهل تكون العقدة في اللغة الفصحى ذاتها ؟

ذلك ما يبدو لأول وهلة . فيشغل الحِراس على لغتنا القومية ، بالنظر في وجوه الصعوبة والتعقيد في الفصحى ، والعكوف على التماس وسائل لمعالجتها . ويضج من يضج بالشكوى من جمودها ويرى أن حياتنا اللغوية لن تستقيم ما لم نأخذ حريتنا في تغيير الموروث من سننها في البناء اللغوي ونهجها في التعبير . وفي هذا أيضاً ما هو موضع نظر :

لقد شكوا مثلاً من وجود كلمات في العربية يختلف رسمُها في الكتابة عن النطق بها ، كألف المقصور حين تكتب ياء في مثل : يُمْنَى وذِكْرَى : وكالهمزة المفتوحة نطقاً ، تكتب على ياء بعد الكسرة وعلى واو بعد الضمة ، في مثل : مِثات وزَوَام . . .

وتعلمنا اللغات الأوربية الحية ، فلم يشق علينا أن يختلف نطق ألفاظ كثيرة فيها عن طريقة رسمها ، ولم نسمع أن أهل هذه اللغات فكروا في أن يستبعدوا من الكتب المدرسية ما يشذ عن القواعد القياسية للإملاء .

وشكوا من صعوبة النسق اللغوي الذي يضبط معاني الألفاظ في الجملة ، بحركات الإعراب . وما نعرف لغة في الدنيا تستغنى عن قواعد لنحوها وتصرفها وأدائها ، يتعلمها أبناء اللغة في مدارسهم ، وتعلمها نحن الغرباء ، فلا نلن عُقْدَ القواعد اللغوية في الألسنة الأوربية .

بل لماذا لا نقول إنه ما من مادة علمية يدرسها أبناؤنا ، لا تفرض عليهم قواعد وضوابط ليست بحال ما ، أسهل ولا أيسر من القواعد الأساسية للغة العربية . والتلميذ في المدرسة الابتدائية يتعلم قواعد الحساب فلا تفكر في إعفائه مثلاً من القسمة المطولة أو إجراء عمليات الحساب في الكسور الاعتيادية والعشرية ، وما أظنها أيسر من القواعد النحوية البسيطة للفعل والفاعل والمفعول .

وقد تكون عملية حسابية في الأرباح البسيطة والمركبة ، أعقد من ضوابط
المبتدأ والخبر أو الإضافة أو الاستثناء . . .

ونجد مع هذا ، أن تلميذ المدرسة الابتدائية يحل مسائل الحساب المقررة
عليه ، وقد يعينه بعد إتمام المرحلة الثانوية أن يقرأ جملة من فعل وفاعل
أو من مبتدأ وخبره ، قراءة صحيحة !

• • •

رأى . . .

وأخشى أن نكون ضللنا طريقنا إلى عقدة الأزمة ، متأثرين بالشكوى من
وجود فصحي وعامية ، ومن صعوبة اللغة العربية ، فابتعدت بنا الجهود والمحاولات عن
هذه العقدة ، من حيث توهمنا أننا وصلنا إليها فشخصنا العلة وعرفنا موضع الداء .
وفي مثل هذا الموقف ، يكون من المجدي أن نحاول تغيير الاتجاه
الذي سرنا فيه أشواطاً دون أن تلوح على الأفق بادرة تشير إلى أننا اهتدينا
حقاً إلى عقدة أزمتنا اللغوية .

وإذ أحاول أن أتجه إلى طريق آخر ، يبدو لي أن عقدة الأزمة ليست في
اللغة ذاتها ، وإنما هي في كوننا نتعلم العربية قواعدَ صنعة وإجراءات تلقينية وقوالبَ
صماء ، نتجرعها تجرعاً عقيماً ، بدلاً من أن نتعلمها لسان أمة ولغة حياة .
وقد تحكمت قواعد الصنعة بقوالبها الجامدة ، فأجهدت المعلم تلقيناً والتلميذ
حفظاً ، دون أن تجدى عليه شيئاً ذا بال في ذوق اللغة ولح أسرارها في فن
القول . وانصرف هنالك إلى تسوية إجراءات الصنعة اللفظية ، بعيداً عن
منطق اللغة وذوقها .

وكان الخطأ الأول ، أن الأصل في الإعراب أن يضبط المعنى ويدل
عليه ، لكن اللغويين فصلوا النحو عن المعاني ووضعوا بينهما الحذر
والأسوار . فأنت تتعلم في النحو مثلاً ، حكم الصنعة في نائب الفاعل ، أما
لماذا تصرف العربية النظر عن الفاعل وتأتي بما ينوب عنه ، فذلك ما لا شأن
لنحو به ، وإنما مكانه في علم آخر هو علم المعاني !

وأنت تدرس في النحو ، الحكم الإعرابي للمبتدأ المؤخر والخبر المقدم ،
أما دواعي التقديم والتأخير فنفضلة تماماً عن النحو الذي لا يتدخل في
اختصاص علم المعاني .

ويحفظ التلميذ قواعد الصنعة في المعارف والتكرات ، أما سر العربية
في التعريف والتذكير فلا شأن للصنعة به !

وهذا العزل الشاذ بين الإعراب والمعنى ، هو الذي جار على جدوى التعليم
في كسب ذوق العربية ومعرفة منطقها .

وتحصى مدارسنا على شغل دروس العربية بهذه القواعد النحوية والصنعة
البلاغية ، منفصلة تماماً عن ذوق العربية وأساليبها ، فيتلقاها التلميذ تلقينا ويحفظ
منها ما يفرغه في ورق الإجابة يوم الامتحان ، ثم ينتهي منها تماماً وينقطع
كل ما بينه وبينها ، لم تكسبه معرفة العربية ولم تتجذّر على أذاته اللغوية .
بل أخشى أن أقول إنها تفصل سليقته اللغوية التي كسبها بفطرتة :
فالتلميذ يدخل المدرسة الابتدائية وهو ينطق على سجيته بصيغ التصغير
ويُجرى النسب ، ويميز بين المؤنث والمذكر ، والمفرد والمثنى والجمع .
لا يخلط بين كتابين وكتب ، ولا يقول : الأبواب مفتوح ، أو المعلم محترمة ،
أو المدن المصريون ! وهو يستعمل أكثر المصادر والجموع بصيغها الصحيحة ،
كما يجرى لسانه بأسماء الفاعل والمفعول والزمان والمكان والآلة في صيغها
الفصيحة . . .

ولكن المدرسة حين تلقنه قواعد الصنعة ، يتعثر في عقدها ويضل في
ماتها . وقد نسأل طالب اللسان في قسم اللغة العربية عن إجراءات
الصنعة في تصغير : بنت أو سوق ، مثلاً فلا يدرى بم يجب . وهو من
طفولته يقول : « بُنْيَة وسويقة » على سليقته التي فسدت بالتعليم !

هذه فكرة مجملة عن رأيي في أزمتنا اللغوية ، أرجو أن يأخذ مجاله من
النظر والتأمل والدراسة ، لعله يجدي علينا فيما يتعلق به من صحة وجودنا اللغوي !